المقتطف

الجزء الاول من المجلد العاشر بعد المئة

١٠ يناير سنة ١٩٤٧ — ١٧ صفر سنة ١٣٦٦

النساطرة في آسيا

اشتهرت مدينة « أنطاكية » بأنها من أولى مدن المسيحية التي قام زعماء الدين فيها بأول حركة من تلك الحركات الفكرية التي كانت ذات أثر كبير في شيوع الفلسفة ، وفروع الفلسفة اليونانية خاصة . ذلك بعد مناظرات لاهوتية طويلة محتدّة . وقام بالحركة في « إنطاكية » معلمان يقال لأحدهما « ديودوروس » (١) والآخر « تيودوروس » (٢) المَصّيصي ، وكانا شديدي الاعتقاد في اكتمال الناسوتية في المسيح عليه السلام .

وكان أكبر المؤيدين لهذا المذهب راهب من رهبان إنطاكية يقال له « نسطوريوس » (٣) انتقل إلى القسطنطينية أسقفاً لها في سنة ٤٢٨ م ، وتبع تأييد « نسطوريوس » لهذه الفكرة

---

(١) Diodorus (٢) Theodorus of Mopsuestia (٣) Nestor and the Nestorians

نسطور بطريرك القسطنطينية من ٤٢٨ الى ٤٣١ م . أسقطه مجمع أفسوس متهماً بالهرطقة ، وتوفي في سنة ٤٣٩ م . والنساطرة أتباعه ، وقد انكروا اتحاد طبيعتين في شخص المسيح ، وقالوا بأنه شخصيتين منفصلتين ، وان اتحاد تينك الشخصيتين معنوي محض . وبعد مجمع أفسوس أسس النساطرة مدارس الرها ونصيبين وسلوقية ، ثم طردوا بمقتضى أرادات امبراطورية الى بلاد فارس ، حيث استقروا ونشروا تعاليمهم ، ومن ثمت انحدروا الى الهند ثم الى الصين . وحوالي سنة ١٤٠٠ م اضطهدهم تيمورلنك المغولي ، فهدت مدارسهم وزالت معالمها ، وفي القرن السادس عشر اندمجت بقاياهم في الكنيسة الرومانية

مناقشات حادَّة حتى انتهى الأمر بعقد مجلس ديني في مدينة « أفسوس » سنة ٤٣١ م ، فانتصر حزب الاسكندرية ، وهو الحزب القائل بما يضاد المذهب النسطوري ، واعتبر « نسطوريوس » وأتباعه هراطقة (١) .

أما النساطرة فكانوا على اعتقاد كامل في أن نظراءهم بعيدون عن حكم العقل والضرورات الطبيعية . لذلك سعوا ، بعد مضي عامين على حكم مجلس « أفسوس » الى جمع شملهم ، وعلى الرغم من مطاردتهم والاضطهاد بهم ، نزلوا مصر واتخذوها مقرًّا لبث تعاليمهم .

* * *

قبل ذلك العهد أغلقت مدرسة نصيبين (٢) ، أو بالاحرى انتقلت إلى الرُّها (٣) ، وفي سنة ٣٦٣ م ، سلمت مدينة نصيبين إلى الفرس تنفيذاً للمعاهدة التي عقدت إثر الحرب التي أشعل نارها الامبراطور « يوليانوس » (٤) ، وكان رجال مدرستها منتشرين في الممالك المسيحية إذ ذاك ، فعادوا الى التجمُّع في الرُّها ، وفتحوا مدرسة سنة ٣٧٣ م ، وبذلك أصبحت تلك المدينة ، ولو أنها في أرض تابعة للامبراطورية البوزنطية (٥) ، مركزاً للكنيسة التي ينطق زعماؤها باللسان السرياني .

أصبحت مدرسة « الرُّها » بعد ذلك موطناً لأفراد من زعماء النساطرة الذين تقبلوا

---

(١) Heretic : يونانية معربة ، وهم المارقون من الدين ، والهرطقة : المروق

(٢) نصيبين : Nisibis : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل الى الشام (معجم البلدان ٢٩٢ : ٨) . وكانت تدعى أيضاً « انطوخية موغدونية » : Antiochia Mygdonia في العصر القديم . وهي عاصمة اقليم موغدونية : Mygdonia في ما بين النهرين ، وفي بقعة من أخصب بقاع العراق . وكان من أكبر البلدان التجارية ، فضلا عن موقعها الحربي العظيم (Classical Dictionary : 605- 606)

(٣) الرها (بضم الراء) : Edessa : وكانت تدعى في العصر القديم « انطوخيا كاليرهوية » Antiochia Callirrhoe مدينة من أقدم المدن في شمال الجزيرة ، وكانت عاصمة اقليم أوسروينية Osroëne ، وبجوار الرها قتل الامبراطور قراقلا سنة ٢١٧ م . (Classical Dictionary ص 318) واسمها بالرومية أذاسا ، والنسبة اليها رهاوي . بنيت في السنة السادسة من موت الاسكندر بناها الملك سلوقس (معجم البلدان ٣٤٠ : ٤) ، (٤) Julian (٥) The Byzantine Empire

حكم مجلس « أفسوس » . غير أن الامبراطور « زينون » [١] أغلق تلك المدرسة في سنة ٤٨٩ م ، بحجة أن تعليمها نسطوري متطرف ، فلم يجد أهلها من مرئل سوى الهجرة الى البلاد الفارسية ، فهاجروا وعلمهم كبيرهم « بارصوما » [٢] سنة ٤٥٧ م .

نجح « بارصوما » في أن يقنع فيروز [٣] ملك الفرس بأن النساطرة يوالون أبناء فارس ويعضون خاضعين لقوانينهم ، وظلوا على عهدهم هذا كائنين في كل الحروب التي وقعت من بعد ذلك . ثم أسس النساطرة مدرسة أخرى في نصيبين فأصبحت بورة تنبع منها التعاليم النسطورية ، تلك التعاليم التي كوّنت وجهاً من أوجه المسيحية مصبوغاً بالصبغة الشرقية البحتة .

ومن ثمّ انتشر النساطرة في جوف آسيا وبلاد العرب ، يذيعون تعاليم المسيحية ، ولم يكونوا عاملين على نشر المسيحية لذاتها ، بل أرادوا أن ينشروا معها تعاليمهم الخاصة في طبيعة المسيح ، فأخذوا يستعينون على بث أفكارهم بأقوال ومذاهب متنوعة من الفلسفة اليونانية ، فأصبح كل مبشر نسطوري بحكم الضرورة معلماً في الفلسفة اليونانية ، كما أنه مبشر بالدين المسيحي [٤] .

كان السبب الذي حفز النسطوريين إلى نشاطهم هذا ، نشاط أعدائه نظراؤهم القائلون بالطبيعة الواحدة ، وندعوهم الوَحديطَبَعيّون [٥] (في المسيحية) والوحديطبعي [٦] هو أحد القائلين بأن للمسيح طبيعة واحدة ، وبمعنى أشمل واحد من طائفة نصرانية يعتنق فكرة أنه ليس للمسيح غير طبيعة واحدة متحدة أو منسلخة ، جزء منها قدمي (إلهي)

---

(١) Zeno : امبراطور بوزنطي (٤٧٤ — ٤٩١ م) وكان ، ايزورياً Isaurian بالولد وهو ابن زوجة الامبراطور ليون الاول ، ولقد اشتهر في التاريخ بأنه قمع عدة ثورات ؟ وهو الذي أغرى ثيودوريك Theodoric أحد ملوك القوط الشرقيين بأن ينزو ايطاليا ، وكذلك أعلن الانرطيقون Henoticon ، وهي معاهدة تمام عقدت بين زينون وثيودوريك ، على ان يترك هذا مناوأة الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وينقض على « أودوسر » فيملك منه ايطاليا (٢) بارصوما Barsuma : أسقف نصيبين في ما بين النهرين (٤٣٥—٤٨٩ م) وهو المؤسس الاكبر للكنيسة النسطورية في شرقي آسيا (موسوعة بستوري ص ١٢٤) . (٣) Piruz (٤) راجع كتابنا تاريخ الفكر الديني (١٩٤٨)

(٥) Monophysites (٦) Monophysite

وجزء منها يشرح ، على العكس من المعتقد الارثوذكسي ، القائل بأنه بالتجسد نشأت طبيعتان كل منهما مستقلة عن الاخرى ، القدسية والبشرية ، اتحدتا من غير أن تختلطا أو تطغى إحداهما على الاخرى في شخص المسيح .

* * *

واقد انقسم الوحديطبعيّون أقساماً وتفرّقوا شيعاً . ومن أقدم هذه الشيع شيعة « الاوتوخيين »[1] أتباع أوتوخس »[2] الذي اتهمه المجمع الخلقيدوني[3] في سنة ٤٥١ م وتنحصر تعاليمهم في القول بأن المسيح ليس له غير طبيعة واحدة هي الطبيعة القدسية (الالهية) . أما الوحديطبعيّون الاصلاء ، فيقولون بأن الطبيعة القدسية والطبيعة البشرية ، إندمجتا في المسيح فصارتا واحدة.

إن أوائل القائلين بهذا المذهب ، ومؤسسوا الكنيسة القبطية في مصر هم ديوسقوروس[4] الذي اتهمه مجلس خلقيدونية (ومات سنة ٤٥٤ م) وطيموثي أو طموثيوس أيلوروس[5] (الملقب بالمرّ) الذي صار بطريركاً في سنة ٤٥٧ م. وكان سفيروس (سويرس)[6] أعظم رجال هذا المذهب حوالى سنة ٥٢٠ م . في حين كانت طائفة أخرى منهم تدعى اليوليانية.[7] وانتشر الوحديطبعيّون في سوريا انتشاراً واسعاً في خلال القرن السادس وسمّوا اليعاقبة نسبة إلى يعقوب بارادايوس[8] (وهو يعقوب السروجي) أسقف الرها (٥٤١ — ٥٧٨ م) ، وقد انقسم الوحديطبعيون أكثر من ثلاثين فرقة :

ان كان « ديسقوروس » قد أتهم أمام الكنيسة ، وصدر حكم مجلس « أفسوس » عليه فإنه ترك الكنيسة أمام مشكلة من مشاكلها العظمى، التي ظلت تعمل في رؤوس الناس زماناً ،

---

(١) Eutychians (٢) Eutyches (٣) Chalcedonian Council (٤) Dioscorus
(٥) Timothy Ælurus

(٦) Severus (٧) Julians (٨) يعقوب بارادايوس : Jacob Baradæus وهو يعقوب السروجي Jacob Sinuge : مؤسس شيعة اليعاقبة النصرانية انتشرت في سوريا وما بين النهرين وغيرها ، وهي فرع من المذهب الوحديطبعي ، ونسبت هذه الشيعة اليه ، وهو سوري الاصل رسم اسقفاً للرها حوالى سنة ٥٤١ م ، ورأس هذه الكنيسة يدعى بطريرك انطاكية

حتى انتهت الخلافات الشديدة بمجمع عقد في سنة ٤٤٨ م بمدينة «خلقيدونية»[١] وكانت نتيجته أن أخرجت فئة أخرى من الكنيسة الرئيسة ، هم فئة المعتقدين بالطبيعة الواحدة في المسيح.

اضطهدت امبراطورية بوزنطية الشيعة اليعقوبية ولكن أعضاءها لم يخرجوا عن حدود الامبراطورية ، بل ظلوا في داخلها قسماً مستقلاً بصورة خاصة من أصحاب الطبيعة الواحدة (الوَحْدِيَّة مِيشُون) ، وأرسلوا طائفة منهم في خارج الامبراطورية تبث تعاليمهم. على أنّ هؤلاء قد اتبعوا نفس الطريقة التي اتبعها النساطرة في ترك لغة نظرائهم في الدين ، وعمدوا الى استعمال اللغة القبطية واللغة السريانية . وفي الحق أن عصر اللغة السريانية الذهبي لا يبدأ إلاّ برجوع اليعاقبة عن استعمال اللغة اللاتينية ، الى اللغة السريانية .

إذا تأملنا من النتائج التي ترتبت على خروج النساطرة واليعاقبة ، استطعنا أن نفهم لماذا ترجمت أعمال الفلاسفة اليونان إلى اللغة السريانية . بينما نجد أن الحركة النسطورية قد أصبحت بالتدريج الوسط الذي تركزت فيه ثمار التثقيف اليوناني ، وانتشرت في آسيا عبر حدود الامبراطورية البوزنطية في خلال بضعة القرون التي تقدمت انتشار الاسلام .

إذن فالمذهب النسطوري قد انتشر في خارج آسيا ، ولكن إلى أي مدى كان انتشاره ، وإلى أي حد بلغ أثره ؟ مما يدل دلالة قاطعة على ذيوع المذهب النسطوري في آسيا وعظم انتشاره واستفاضة تعاليمه في هذه القارة ، ما ننقله هنا عن كتاب « النصرانية في الصين[٢] » تأليف « هوك » ، وكتاب « الديانات العشر العظام » تأليف « كلارك »[٣] ، واليك هو :

---

(١) لم تذكر المدينة في معجم البلدان وانما ذكرها ياقوت :

« الخلقدونة ويروى الخلقدونة : هو الجمع الذي عقد بالمدينة وطرسوس وقد ذكر في موضع قبل هذا ، وهو في الاقليم السادس تحت خمسين درجة وعرضه سبع وأربعون درجة (٤٥٨ : ٣) وفي معجم الاعلام الجغرافية : خلقيدونية : مدينة إغريقية في بيثونيا : Bithynia على شاطئ بروبنطس Propontis عند مدخل البوسفور ، وتواجه تقريباً مدينة بوزنطية ، أسستها جالية هبطت ذلك المكان من ميغارا Megara سنة ٦٨٥ ق . م . ولأنها تقع في مكان أقل شأناً من المكان الذي تقوم فيه بوزنطية ، سميت الكهانة « مدينة العميان » انظر أسطرابون ص ٣٢٠ ، وحوليات طاقيطوس ج ١٢ ص ٦٣) ؛ وبعد أن ظلت زماناً مدينة مستقلة ، سقطت تحت سلطة ملوك بيثونيا الذين تلوا منهم أهلها الى مدينة نيقوميديا : Nicomedia الجديدة (سنة ١٤٠ ق . م .) وأعاد الرومان تحصينها ، وجعلوها المدينة الاولى في ولاية بيثونيا أي بونطيقا قريبا : Pontica Prima كما سموا هذه الولاية ، وقد عناها الاتراك محواً .

(٢) Christianity in China : Huc (٣) Ten Great Religions : James Freeman Clarke

« في سنة ١٦٢٥ كان جماعة من العمال الصينيين يعملون في حفر جدار لاقامة بيت في خارج أسوار مدينة « سي ـ نجاوـ فو » Si-Ngan-Fou ، عاصمة مقاطعة « شن ـ سي » Chen-Si ، فعثروا على حجر تذكاري يشبه تلك الأحجار التي اعتاد الصينيون أن يقيموها لتنقل الى الأخلاف تذكارات أحداث كبار أو ذكريات عن عظماء الرجال . والحجر عبارة عن لوح من الرخام الاسود ، تبلغ مساحته عشر أقدام طولاً في خمس عرضاً ، وعلى صفحته منه نقش بالصينية القديمة ، مع بعض حروف غير معروفة في الصين » .

« وعنى « اليسوعيون » الذين رأوا هذا الحجر بأخذ نسخة منه أرسلوها الى أوربا . وقد أودع واحد من هذه النقول بمكتبة البيت اليسوعي في روما العظمى ، حيث كان محط الانظار وسبباً في اجتلاب الزوّار . وبعد ذلك بقليل أخذت نسخة بمقياس اللوح نفسه وأرسلت الى باريس وأودعت المكتبة الملكية بشارع ريشليو ، وربما رئيت الى الآن في متحف المخطوطات » .

« هذا الأثر الذي استكشف في أنقاض مبنية في ضواحي عاصمة قديمة من عواصم الامبراطورية الصينية ، قد أثار طائفة من العجب . فإنه عند ما بحث وعولجت نقوشه لمعرفة معانيها ، ظهر مع العجب أن الديانة النصرانية كان لها في الصين رسل كثيرون في بداية القرن السابع الميلادي ، وأنها ظلت مزدهرة هناك زماناً طويلاً . أما الحروف الغريبة غير المعروفة في الصين ، فقد اتضح أنها من تلك التي كان يستعملها سكان سوريا القدماء ، وتعرف باسم الخط الاسترانجيلي[1] : Estrangélho وقد يعثر بها في مخطوطات سريانية تتقدم القرن الثامن الميلادي » . وهذه ترجمة ما نقش في هذا اللوح : —

« تذكار الانتشار الأعظم للعقيدة النورانية في الامبراطورية الوسطى ، ألفه « كهنج

(١) وفي الموسوعة البريطانية ج ١ ص ٦٨٤ (٩) ما يلي : استعمل نصارى سوريا الشمالية نوعاً من الالفبية العربية تعرف باسم استرانجيلي Estrangelos ، ومنه نقلها مبشرو النسطوريين الى آسيا الوسطى ، فاتخذت هناك أصلاً لعدد عظيم من الالفبيات التي انتشرت حتى اليوم بمنشوريا ، وجاء في الجزء ٢٢ من هذه الموسوعة :

Documents have also been found in Estrangelo (two forms) , Brahmin, and even Tibetan. p. 618; 22 a.

ـ تسنج : Khing-Tsing ؛ زائد معبد « تا ـ تسن » : « Ta : Thsin

١ — « يوجد على الدوام سبب واحد حقيقي، هو الأول ولا بداية له ، فائق العلم ، غير مادي ، وهو الأخير ، وفيه تنحصر كل الكمالات . هو الذي أقام قطبي السماء ، وخلق كل الموجودات قدسي كلي القداسة ، كما هو منبع الكمال هذا الموجود الباهر ، أليس هو الثالوث : Triune الملك الحق الأبدي : أو لُوهُو » (١) .

« قسم الدنيا بصليب أربعة أقسام . وبعد أن حلل الهواء الأوّل (الأصلي) خلق العنصرين لنظّم الماء ، ومن ثمّ ظهرت الشمس والقمر . وجعل الشمس والقمر يدوران ليكون الليل والنهار . هو جَبَّل الأشياء التي عدّتها عشرة آلاف وكمّلها . ولكنه عند ما خلق الانسان الأول زوّده بألفة نقية تامة ، وأوصاه بأن يرعى ذلك البحر النُّجيّ الذي يغمره من الشهوات . وكانت طبيعته خلو من الرذيلة ومن الخطأ . أما قلبه ، وكان بسيطاً نقيًّا ، فقد كان في المبدإ خالصاً من الترّوات الموروثة » .

٢ — « غير أن « ما ـ تسنج » : Fa-Tsang روّج الأكاذيب، ولوّث بحبه ما كان نقيًّا قدسيًّا . أعلن وأكد أن ما يعلن هو الحق ، مبدإ التساوي في العظمة ، فاستطاع أن يقلب الأفكار جميعاً . ومن هذا نشأ خمس وستون وثلاثمائة طبيعة ، (٢) عاونت كل منها الأخرى في سلسلة طويلة ، وماكت ، على حد ما يقال ، شبكة من الشرائع ، وضع بعضها المخلوق محل الباقي ، وأنكر بعضها وجود المخلوقات وعلمت المبدأين معاً (٣) وشرع بعضها الصلوات والقرابين ليحصلوا على الخير . وتظاهر البعض بالزهد ليخدعوا الناس، وراحت عقول الناس تعمل في جهد جاهد وملأها الريب والقلق . وانقطع التطلع الى الخير الأسمى ، وظلوا هائمين من غير أن يحصلوا على شيء وانحدروا من سيء الى أسوأ منه . واشتدّ الظلام وغاظ ، وعميت بصيرة الناس ، فمضوا يهيمون على وجوههم ، عاجزين عن استرداد ما فاتهم (٤)

٣ — هنالك امدّ إلهنا الثالوثي بجوهرة الأقدس ، السيد « مي ـ شي ـ هو »

(١) الله (٢) عدا بعدد أيام السنة ولعل المقصود بالشيع هنا طقوس دينية تدور مع أيام السنة ، لكل يوم طقسه الخاص (٣) لعل المقصود مبدأ الخلق ومبدأ الخالق . (٤) لعل في ذلك وصفاً لحالة الخلق قبل خلاص الانسانية بصلب المسيح كالمعتقد النصراني

Mi-Chi-Hu (المسيح) فسمّتني على مقتضى الحقيقية ... إنسان ... وفرح بذلك ملائكة السماء ، وولدت عذراء قديساً في ... وتمت هذه الغاية السعيدة كوكبات السماء العظمى . وشهد الفارسيون ذلك البهاء ، فسارعوا الى الطاعة والخضوع . ولقد تحقق بذلك ما بشّر به الأربعة والعشرون قديساً منذ أزمان بعيدة . ونظّم بناموسه ووصاياه الأسر والممالك ، ووضع ديانته على أساس الفكرة الصحيحة ، فكرة التثليث في الوحدة . وجعل الايمان الحق ساكناً للصدور ، وأعطى الناس الوصايا الثواني ، وطهّر الانسانية من دنيّاتها بأن فتح الباب للفضائل الثلاث [1] .

« لقد نشر الحياة وقضى على الموت . وعلق الشمس المضيئة لتقضي على سر الظلام ، فقضى بذلك على أكاذيب الشياطين . لقد وجّه صفيحة الرحمة نحو هرم الشرور ، فنجا بذلك كل المخلوقات ذوات الذكاء والعقل . وبعد أن فرغ من هذا العمل الدّال على القدرة ، ارتفع عند منتصف النهار ومضى نحو « الحق » ، وخلّف سبعاً وعشرين كتاباً » .

« لقد أوسع ينابيع الرحمة ، حتى يؤمن الناس ويغطوا في دينه . والتعميد بالماء وبالروح شريعة تطهّر النفس وتجمّل المظهر . وعلامة الصليب تجمع نواحي الدنيا الاربع ، وتعيد تلك الآلفة التي ذهبت . فاذا قرعنا على قطعة من الخشب ، جعلنا صوت البرّ والرحمة تتجاذب أصداؤه . أمّا إذا قرّبنا قرباناً متجهين نحو الشرق ، فإنّنا بذلك نعرف طريق الحياة النظيمة » .

« يرسل رؤساؤنا لحام ، ليظهروا بذلك تفانيهم في سبيل خيرانهم [2] . أما اللاّطية [3] التي يلبسونها على رؤوسهم ، فالدلالة على أنهم انصرفوا عن الحياة الدنيوية . ولأن تمنح العبد حريته ، فانك تصبح حلقة الوصل بين القوي والضعيف . إنّما الاجتماع المال والغنى ، وتقسم مع الفقير ما تملك . والصّوم يقوي القدرات العقلية ، والابتعاد عن الطعام والاعتدال ، يحفظان الصحة . تتعبّد سبع مرات كل يوم ، وبصلواتنا تساعد الأحياء والأموات . وتقرّب قرباناً في اليوم السابع ، بعد أن تُطهّر قلوبنا وتنقى المخيّلة من معصياتنا . وهذه

(١) لعل المقصود بذلك روح التثليث (٢) يظهر ان ارسال اللحم كان رمزاً على ذلك

(٣) شبه القلنسوة صغيرة تلزم على جلدة الرأس . ويستنتج ان ارسال اللحم ولبس اللاطية كانا مظهرين من مظاهر رهبان النسرانية هناك ، ولهما دلالة خاصة .

الديانة على كمالها وحسنها، من الصعب تسميتها، ولكنها تنير وتُذهب الظلام برعايتها. إنها تدعى « الديانة اللامعة ».

٥ — (١) العلم بغير قداسة لا عظمة فيه، والقداسة بغير علم لا تحدث ارتقاء. وعندما يأتلف العلم مع القداسة ويسيران معاً، فإن الكون بأسره زحزحه ويأتلق ».

« لقد جُعل الامبراطور « تاي ـ تسونج » Tai - Tsoung ملكه الامبراطوري. لقد بدأ عهد الانقلاب، وحكم الناس بقداسة. وكان في عهده رجل سامي الفضيلة يقال له أولوبن » : Olopen جاء من مملكة « تا ـ تسن » : Ta-Thsin ولقد هدته السحب الزرق لعمل إنجيل العقيدة الصحيحة، واتبع أحكام الرياح، فاستطاع أن يخترق مفاوز عصيبة مُدلهمة للحتوف ».

« في العام التاسع من حكم « تشنج ـ كوان » : Tching-Kouan (٦٣٦) وصل الى « تشانج ـ نجان » : Tchang-ngan فأمر الامبراطور وزير الامبراطورية الأول، وكان يدعى « فانج ـ هي ـ ون ـ لنج » : Fang - hi - wen - ling أن يذهب مصحوباً بعدد كبير من الأتباع الى الضاحية الغربية، ليقابل ذلك الغريب ويحضره الى القصر. وقد ترجمت الأناجيل المقدسة في المكتبة الامبراطورية، وتلقت الحاشية تلك العقيدة، وتأملت منها مليًا، وفهمت وحدة الحق العظمى، وصدرت وثيقة خاصة تجيز إذاعتها ونشرها ».

« وفي السنة الثانية عشرة من حكم « تشنج ـ كوان » : Tching-Kouan وفي خلال القرن السابع منها، حيث كان الخريف، أذيعت الوثيقة مضمَّنةً ما يأتي :

« ليس لهذه العقيدة اسم خاص، وليس للقدسية جوهر محدود، إنها تنظم ديانات توافق أممًا مختلفة، وتحمل الناس على طريقتها زمراً وذرافات. إن « أولوبن » Olopen أحد « أهالي تا ـ تسن » : Ta-Thsin وهو رجل سامي الفضيلة، ويحمل الأناجيل والصور، قد حضر ليقدمها إلينا في البلاط العالي. وبعد بحث لم يتجاوز مداه لحظة واحدة في روح هذه الديانة، إتضح أنها حسنة دقيقة ترمي الى السلام، وأن التأمل من مبدئها الأصيل

(١) لم يذكر الاصل رقم « ٤ ». ص ٣ و ٥.

يُسري أنها تولّد الكمال وتركز الراحة . إنها مقدسة للناس ، فينبغي أن تنشر في كل مكان ظله السماء . ولهذا أمر الحكام أن يقيموا معبد « تا ـ تسن » في الناحية المسماة « تاسنج » Ta-tsong من المدينة الامبراطورية ، وأن يخصص للخدمة فيه واحد وعشرون من رجال الدين » .

١٠ — (١) إن « سو ـ تسونج » Sou-Tsoung : الامبراطور المستنير الدائم الصيت ، قد أقام في « لنج ـ أو » : Ling-ou وغيرها من البلاد ، بلغت في المجموع خمس ، معابد لايمانة . وبذلك قويت شكيمة الطير الاول ، وازدهرت الحضارة . وأقيمت في بعض الأحيان قداسات فيها المهابة والوقار ، وخطت الامبراطورية في طريق فسيح من السعادة » .

١١ — « إنّ تاي ـ تسُونج : Tai-Tsoung (٧٦٤) وهو امبراطور محارب مثقف قد استمر في تأييد هذا الانقلاب ، وجعل همّه محصوراً في السلام والهدوء . وكان في كل سنة عند حلول ساعة الميلاد (عيد الميلاد) يحرق البَخُور ، السَّمَاوي ، إحياءً لذكرى الطير القدسي ، ويقيم الولائم الامبراطورية ليبارك الجمهور اللامع (النصارى) .

٢١ — (٢) نصب هذا التذكار في السنة الثانية من حكم « كين ـ تشونج » : Kien-Tshoung أحد أفراد أسرة : « تانج » : Thang العظيمة (٧٨١ م) في اليوم السابع من ربيع القمر الثاني . وكان « نيج ـ شو » : Nieg-Chou راعي هذه العقيدة ، رئيساً لأبناء الدين اللامع في مملكة الشرق » .

هذه ترجمة الكتابة التي وجدت على الأثر الذي عثر به في « سي ـ نجان ـ فو » سنة ١٦٢٥ م . وقد أجمع النقاد على أن في العبارات ما يدل على نزعة نسطورية أكيدة . والراجح أن الذين نشروا هذا المذهب في تلك الاصقاع ، جماعة من القسطرة عبروا دجلة والفرات ، ثم دخلوا خراسان ، ووصلوا امبراطورية الصين من مقاطعة « شنسي » Chen-Si

ولقد أثار هذا الكشف كثيراً من النقود والبحوث ، اشترك فيها « فولتير » وغيره من النقاد والكاتبين ، وقد نأتي على طرف منها في بحث آخر .

اسماعيل مظهر

(١) ليس في الاصل ارقام ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، (٢) هكذا في الاصل ولا توجد أرقام بين (١١) و (٢١)

الفكر العربي
لا يزال في الاغلال
شيوخ نجد وشيوخ مصر
بمناسبة كتاب « هذي هي الاغلال »

أصدر العالم النجدي الاستاذ عبد الله علي القصيمي كتابه «هذي هي الاغلال» يريد به أن يجرب المسلمون والعرب الحياة بعد أن جربوا الموت طويلاً ، فبيت عليه عواصف الرجعية والجمود من كل مكان ، في مصر وفي المملكة العربية السعودية ، وقاوموا يريدونه بكل سهم وجدوه حتى لقد استعانوا بالكذب والوشاية وبما هو أقل منهما قدراً . وتاريخ النضال بين الرجعية وبين أنصار التقدم والوثوب تاريخ طويل ، زاخر بالبطولة والنبل من جهة ، والخسة والصغار من جهة أخرى . والإنسانية أجمع مدينة بكل ما لديها من علوم وأفكار وآداب وحضارات ومتاعات ، وأديان أيضاً ، لهؤلاء الرجال القلائل الذين يرهبون الجرأة على الباطل الموروث وعلى التقاليد الآخذة بالخناق وعلى الأصنام المرفوعة وعلى كل نقص وضعف قديمين. ولو أننا تصورنا البشرية محرومة من هؤلاء الرجال البسلاء لما كان هنالك بد من أن نتصورها تحيا في مطلع وجودها الفطري البدائي المهين ، عاجزة عن الوقوف على قدميها. وقد تقدم البشر في العصور الأخيرة تقدماً عظيماً من حيث الإستعداد لقبول الجديد من الأشياء ونبذ القديم الذي يثبت فساده أو نفعه أو عجزه عن تحقيق الأهداف العليا للحياة السعيدة الصالحة . وقد عدت أوروبا وأمريكا اليوم نموذجين واضحين في هذا الإستعداد . ومن أجل هذا استطاعتا أن تسيرا في خطوات سريعة دائبة إلى هذا التفوق الذي أوقع العالم كله تحت سيادتهما الظافرة . أما نحن — والشواهد على ذلك كثيرة متلاحقة — فلا نزال حيث كانت البداية الفكرية ، وحيث كان الجمود الصارم العنيد . وقد يكون من شواهد هذه القضية السيئة، هذه الضجات والصرخات التي تنطلق ملتاعة حول كل ومضة فكرية أو وثبة عقلية يقدم عليها — في ركام من الركود والجمود — أحد الذين رزقوا هذه الموهبة الإنسانية النادرة التي لا تستطيع بيئتها الخاملة الكسول أن تفهمها الإفهاق الموثوق في

حديثها المرسومة . وإن أقرب شواهد على هذا الخيال والتكهن الذهني لدينا — معشر العرب أو معشر المسلمين — هذا الوجدان المتزلزل من الأباطيل والأكاذيب ضد هذا الكتاب : كتاب « هذي هي الأغلال » والمهم هنا جداً أن نعرف من هؤلاء المتناصرون المتحالفون لحاربة هذا الكتاب ، وما هي الأغراض الحقيقية الخفية التي تدفعهم أو تدفع أكثرهم إلى خوض هذه المعركة ، وما الذي يجب أن يصنعه أولو الفكر والرأي والأمر لرد هجومهم وللأخذ على أيديهم — إذا كنا حقاً راغبين في أن نسلك الجادة التي سلكها الناجحون في الحياة العالمون بها ، وإذا كنا أيضاً نريد أن نتقبل هذه الحياة تقبل الأحرار المشاركين في الصفات ، لا تقبل العبيد الذين تفرض عليهم حياتهم ووجودهم فرضاً ! !

إن الذين نهضوا لحجب هذا الضياء هم فريقان من حيث المكان : فريق هنا في مصر حيث تضج بالأضواء والأفكار والصناعات التي أبدع في إيجادها ذلك العقل الذي تفلت من أغلاله ، وفريق في الحجاز ونجد حيث يدأب ذلك العقل العربي العبقري — الملك عبد العزيز — على إحياء الموات وإيجاد الحياة وجلب الخضرة الى تلك الآكام الجرداء والى رؤوس الحجارة الصماء ... ولكل من الفريقين المتحالفين في هذه الحرب أغراض ودوافع . أما الذين يقاومون الكتاب في الحجاز ونجد فهم فريقان أيضاً : أحدهما أولئك الغرباء الذين جمعتهم المطامع وشهوات الحياة الرخية حول عرش ذلك الجواد العظيم ، ثم ثانيهما أولئك الشيوخ النجديون أو الحجازيون الذين يتكرون أن يكون في الدنيا ما يطلب أو ما يتعلم سوى كتب الفقه والتوحيد . أما أولئك الغرباء الخافون بعرش طويل العمر من مستشارين وموظفين ، فهم يتكرون هذا الكتاب لأنهم يعلمون أن سلطانهم ومجدهم موقوتان بوجود الليل في بلاد العرب ، وإنهم حينما يطلع النهار هناك يشدون رحالهم لا محالة الى حيث كانوا قبل أن يبدأوا هذه الرحلة السعيدة المؤقتة . وحينئذٍ يفقدون كل ما وجدوا في عالي الجاه والمال . إذ هم يعرفون من جهة أخرى أن هذا الكتاب كتاب « الأغلال » — هو بمثابة النهار الذي يشرق فيهزم الظلام ويلزم الذين يعملون في الظلام بأن يكفوا عن العمل ، وأن الشعب الذي يقرأ مثل هذا الكتاب لا بدَّ أن يحب المعرفة ولا بدَّ أن يتعلم ، وبوسئذٍ يفقد هؤلاء الغرباء السعداء ميزتهم التي بها استغلوا تلك

البلاد وأصبحوا جباة أموالها ولو أن أهل هذه البلاد قرأوا أمثال هذا السفر وأجابوا نداءه ونهلوا من ينابيع المعارف والعلوم ، لكان هؤلاء الضيوف خارج حدود البلاد من أزمان . . أنهم يعرفون كل هذه الأمور معرفة جيدة وهم من أجل هذه المعرفة يناوئون كل نور قد يتسلل على غفلة منهم إلى موضع محدهم وسلطانهم الطويل العريض ، وهم من أجل هذه الحقيقة أيضاً يحسنون — بلا اخلاص ولا تقوى — لأهل البلاد حالتهم ويوحون إليهم بألاّ يغيروها لأن في تغييرها — في حسب زعمهم وقولهم — ضياع الدين والخلق والسعادة . وهم إذن على قول من يقول : « الغاية تبرر الوسيلة » غير مخطئين ولا ملومين . ولكننا نحن المخطئون الملومون يوم نجهل أهدافهم ومساعيهم وما يحاولون ويريدون .

* * *

أما المحاربون لهذا الكتاب من شيوخ نجد والحجاز فهم جماعة من الذين سجنت أفكارهم منذ وجدوا في كهوف مظلمة سمتها أفكار مظلمة في عهود مظلمة ، فلا أمل في أن يتقبلوا بسهولة وسرعة هذا الضياء الذي يحمله هذا الكتاب ولا عجب في أن ينوروا وينكروا . ولا ريب أيضاً في أن بعض هؤلاء الشيوخ الذين قاوموا الكتاب إنما حملهم على مقاومتهم هذه علمهم بأن من الأفضل والأبقى لمصالحهم الشخصية الخاصة ولملكهم الوهابي القاهر أن يبقوا وأن يبقى كل شيء كما هو وكما هو . وآخرون من الشيوخ هم من الغرباء أيضاً الذين ذهبوا هناك يطلبون الصيد . فلا مندوحة لهم عن أن يقاوموا ما قد يطير بعض صيدهم من أيديهم المغتصبة الرخوة .

وكم حاق جلالة الملك عبد العزيز — هبة الجزيرة العربية بدون نزاع — من هؤلاء الشيوخ حينما أحبّ أن يدخل الى بلاده ما لا بدّ منه من حسنات هذه الحضارة وضروريات هذا العصر . . . وقد حرموا استعمال السيارة والتلغراف والتليفون والراديو والساعة في بعض الأوقات ! ! وزعموا أن ذلك كله، لا يعدو أن يكون من أعمال الشياطين . وقد اضطرّ جلالة الملك منذ سنين تحت ضغطهم المتواصل القوي أن يأمر بوقف استعمال بعض هذه الأمور مدة من الزمان وبتحطيم الأجهزة ، وهم لا يزالون حتى اليوم يحرمون العلوم — غير

علوم الدين — ويمنعون افتتاح المدارس ! ! وحسبك أن تعلم أنه لا توجد حتى اليوم في العاصمة — الرياض — مدرسة حتى أولية ابتدائية . وهذا بسبب مقاومتهم ومنعهم مع حرص جلالة الملك وكثيرين من رجال الدولة الأصلاء أن تنتشر العلوم والمدارس في أرجاء المملكة. ومن أغرب ذلك وأشنعه أنهم إذا وجدوا كتاباً في الحجاز مكتوباً عليه مثلاً : « كتاب الطبيعة » استنكروا ذلك وعدّوه ضرباً من ضروب المروق والاشراك بالله ، ثم يلزمون بأن تزال من الكتب كلمة « الطبيعة » ولا يقبلون في هذا الأمر جدالاً . ونحن نشهد أن الملك عبد العزيز عبقري عظيم حيث استطاع أن يسير بدولته وبشعبه في هذه السبيل بين هؤلاء الخرافيين الجامدين .

وأننا لا نشك لحظة في أن مثل هذا الملك الفذ العبقري لا يمكن أن يحكم أمثال هؤلاء الشيوخ في مثل مؤلف كتاب « الأغلال » أو في كتابه ولا أن يقضي عليه بما يقولون ويزعمون ، بل لا نشك في أن القضية ستكون معكوسة أي أن الأستاذ القصيمي هو الخليق بأن يكون رأيه وكتابه هو المحكم المقضي بما فيه مع مخالفيه .

ان الأمم كلها لتتفاخر بالممتازين من رجالها المفكرين وتعمل على الانتفاع بهم وبمواهبهم العقلية ، وتعد هؤلاء الرجال الثلاثة هم أعظم فضائلها ومفاخرها . هذا في الأمم التي يكثر مفكروها ، فكيف بأمثال أمتنا التي عقمت عن أن تلد من هؤلاء إلا القليل في الزمن القليل . ومن ثمة فليس لدينا ذرة من الشك في أن جلالة الملك عبد العزيز وسائر الأمراء ورجال الدولة الأصلاء ، سيحاولون أن تنتفع البلاد والشعب بهذا الكتاب وبكاتبه . لا أن يسمعوا فيه أقوال الجاهلين والجامدين والوشاة المغرضين .

أما الذين يقاومون الكتاب من المصريين فهم عبارة عن شيخ شهر بالتبلد والجهل في بلده مصر وفي الحجاز الذي هاجر إليه مرتزقاً ، ثم رجع منه مطروداً يحمل أوزاره وتضائحه الخلقية والعلمية على كتفيه . هذا أحد المقاومين ، ثم جمعية دينية يديرها جماعة من الشبان الذين يعدّون على أصابع اليد . ونحن لا نتهم هؤلاء الشبان في اخلاصهم ولكننا نتهمهم في عقولهم . ويكفي دليلاً على هذا أن يكتبوا في الشيخ محمد عبده والسيد الأفغاني وأن يقولوا أنهما كانا منافقين وفاسقين وداعيتين للاستعمار ، وأنهما كانا يؤلفان الجمعيات

السرية لهدم الاسلام . وأن يكتبوا ويقولوا مثل هذا القول في سعد باشا زغلول وفي كل رجل من رجال الدولة والوطن والدين كالشيخ المراغي والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ شلتوت ، وفي أمثال حضرة باشا وأمير الحسيني مفتي فاسطين وفي كل رجل له شأن في وطنيته أو في دينه . وعلى رغم أننا لا نعتقد أنهم مخلصون ، فاننا نرى أنهم من أجرأ خلق الله على الاختلاق وعلى الاتهام بالباطل . وهذا طبعاً ليس من سمات المؤمنين الأتقياء ، ولكنها الغرارة الدينية الطائشة والخصومة التي تقع من غير الرجال ... وثمة خصم ثالث لهذا الكتاب وهو رجل يتعاطى صناعة الأدب الصناعي ولكن مقارنته لهذا الكتاب والاسلوب الذي اختار للمقارنة كانا برهانين على براءته من كل صلة بالأدب بكل معانيه ومبانيه . هؤلاء هم خصوم هذا الكتاب في مصر لا غير . أما أحرار الفكر وقادة الرأي فقد أجمعوا بلا استثناء على امتداحه والدعوة إليه وعلى أنه العلاج لأمراض الأربعمائة المليون المسلم الذين عجزوا لشدة أمراضهم عن أن يسايروا ركب الحياة .

* * *

والذي نحب أن نشير اليه اشارة قصيرة من هؤلاء الخصوم الثلاثة هو الخصم الأول، هو رئيس جماعة من الجماعات الدينية الجامدة . والذي نريد أن نقوله هنا انه في معارضته ومقاومته لم يفعل فعل الأتقياء المتدينين الذين يزعم انه من أفضلهم أو على رأسهم — بل لم يصنع صنع الرجال المحترمين الذين يعرفون أن لهم مكانة في الهيئة الاجتماعية يجب أن يحافظوا عليها ، وحرمة لا بد أن يرعوها ، والا فهل يعرف البشر أن رجلاً محترماً يقيم لنفسه وزناً — أو يظن أن الناس يقيمون له وزناً — يعمد الى كتاب مطبوع يملأ الأيدي والمكتبات يحاول الرد عليه أو هدمه على حسب ادعائه ، فينقل منه عبارات وفقرات ويحرفها تحريفاً فاضحاً حتى يزعم أنها باطلة وأنها يجب الرد عليها وأن كاتبها كافر ، فيجيء مثلاً الى هذه العبارة في الكتاب : « وقد عمل الاسلام اهمالاً باهرة لا تكفر ... » فينقلها هكذا بعد أن عمل لها مقدمة وشرحاً يوضح غرضه المحرف

المكذوب — : « وقد عمل الاسلام أعمالاً لا تكفي . . . » (فأبدل بإزاء « لا ») وهكذا يكثر من هذا التحريف في الردود التي كتبها ليرد بها على الكتاب. وقد أتى كل منوف التحريف المعروف عند البشر — زاد ونقص واختزل وغير . . . ونحن نحب أن يعرف كل من يقرأ هذا الشيخ أن كل ما ينقله من عبارات الكتاب وألفاظه — دع ما فهمه منه فهماً — محرف بأحد وجوه التحريف المذكورة فلا حجة بما يقول ويكتب إلا لدى من لم يوهبوا الملكات الانسانية التي أحد معانيها التمييز والفهم لما يقرأ ويرى. وكفى أن نقول أنه طرد من الحجاز . وإذا ؟ ذلك ما نترك القول فيه له هو، فليس من شأننا أن نقول في ذلك شيئاً الا اذا حملنا على ذلك .

***

كتاب « هذي هي الأغلال » في اعتقادي أنه هو كتاب العصر في موضوعه وفي القضية التي عالجها، وأنه لا حياة للعرب أو المسلمين ما لم يأخذوا بالأفكار الصارمة التي ضمنها والتوجيهات الحية التي جاء بها . . . إنه الكتاب الذي يجب — في رأيي طبعاً — أن يفرض على المعاهد العالية أجمع ليستطيع القيام بعملية تطهير عامة قوية من ركاكات الماضي وسخافات التقاليد وبقايا الضعف الذهني والاعتقادي والديني — تلك البقايا التي تلازم من يتخرجون في الجامعات وفي المعاهد العالية فيأتون — على رغم تعليمهم العالي عاجزين عن النجاح في الحياة وعن الابداع فيها — بل عاجزين عن الانتفاع بكل ما لقنوا من علوم ومعارف عالية . والسبب الأكبر في هذا العجز هو ما ذكرنا من سلطان الماضي السخيف العتيد الذي جاء هذا الكتاب ليحمله أحاديث وسوقاً

***

وكتاب كهذا لا شك عندنا في أنه ان يلق لدى سيد الجزيرة وأمرائها ورجالها إلا التأييد والنصر الأكيد .

مسلم مر

المحاكم المختلطة

في تاريخ مصر القديم

عناية قرب الغائها

قد لا يعرف إلا القلة أن هناك ما يسمى « بالمحاكم المختلطة » في مصر القديمة أنشئت لغرض خاص وزالت بزوال الظروف ، فمصر القديمة كما كانت مهداً للحضارات ، كانت كذلك وطناً للتشريع والتقنين . ولم تقل عناية الشعب والقائمين على شؤونه بهذه الناحية الاجتماعية عن عنايتهم بعباداتهم وتقديسهم لآلهتهم، وذلك لأن العدل أساس الملك والعدالة شرط لابد منه إذا أريد للدولة الحياة وللأمة البقاء .

فلا عجب إذن أن نرى للعدل إلاهة تدعى «معات» تهيمن على تمثيلها في الأرض كالملك والوزراء والقضاة وسائر الأفراد . فالمعبودة «معات» هي التي ينتسب إليها القاضي ويدعى كاهنها ، و«معات» هذه هي التي كانت تتحلى بتمثالها الصغير من القلادة التي يلبسها القاضي، تحول عنقه عند النظر في القضايا. ولعلها في ذلك الوقت كانت تشبه صورة مليك البلاد باعتباره حامياً للقضاء وكان هذا التمثال يوضع في كل قاعة من قاعات العدل ليطمئن المظلوم ويرهب الظالم

ولتعميم العدالة في البلاد أنشئت في مصر القديمة محاكم من نوعين ، مدنية وجنائية — وكان اختصاص المحاكم المدنية الفصل في المنازعات العقارية من انتقال ملكية أو بيع أو شراء أو هبة أو وصية أو ميراث أو إيجار وما إلى ذلك — وكانت المحاكم المدنية على ثلاث درجات : —

١ — محاكم كانت تعقد في القرى أو المدن الصغيرة وكان يطلق عليها عادة في اللغة المصرية القديمة إسم « حاجات » بمعنى مجالس قضائية. وكان القضاة ينتخبون من الطبقة الخاصة من الموظفين المعروفين باسم « سرو » أي « الكبار » وكانت تعقد جلسات هذه المحاكم بإشراف حاكم القرية .

٢ — الثانية محاكم عواصم الأقاليم أو بالمصرية القديمة « حات ور» أي البيت الكبير وكانت تنظر في القضايا التي تشبه تلك التي تنظر أمام محاكم الدرجة الأولى وينتخب قضاتها من طبقة كبار الموظفين السابقة . وكانت تعقد جلساتها برياسة حاكم الأقليم — ووزير العدل هو الذي كان يعين قضاة محاكم الدرجتين الأولى والثانية .

٣ — الثالثة وهي محاكم استئنافية تنظر أمامها قضايا محاكم الدرجة الأولى والثانية وتسمى « سوفي ماتور » ويختار قضاتها الستة من أعضاء مجلس العشرة وكان يرأسها الوزير بصفته وزيراً للعدل والملك هو الذي يعين قضاة هذه المحاكم الاستئنافية .

ومما هو جدير بالذكر أن القاضي كان يعرف في المصرية القديمة باسم « صابه » أي المصلح إشارة إلى مهمة القاضي والغرض من القضاء ، وهذا النوع من المحاكم لم يلازم الشعب المصري القديم في جميع عصوره ، بل تحوّل مع مرور الزمن . ففي عصر الوحدة الثاني (الدولة الوسطى) ظهر نوع آخر يعرف باسم « قنبت » واستمرّ في عصر الوحدة الثالث (الدولة الحديثة) وامتاز بأن مجلس للحكم في القضايا الجنائية عدد من القضاة يتراوح بين ستة وثمانية. وكانت المحاكم الاستئنافية لهذا النوع من المحاكم تسمى «قنبت» ما واستمر الحال على هذا المنوال حتى عصر البطالمة فبقيت هذه المحاكم الوطنية لتطبيق القانون المصري في النزاع بين المصريين والفصل في قضاياهم وسميت باليونانية « محاكم الـ Laocritae »

أما الأغريق فكانت تطبق عليهم القوانين الأغريقية في محاكم أغريقية تسمى محاكم الـ « Chrematistae » إذا كان غريقا النزاع منهم ، وهي تشبه المحاكم القنصلية. ولكثرة نزوح الأغريق إلى مصر بعد غزو اسكندر الأكبر لمصر سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ثم قيام أسرة ملكية جديدة للبطالمة .

ولما زاد عدد الأجانب الذين وفدوا على مصر وكثرت المداولات التجارية مع وجود اختلاف بين القوانين المصرية المحلية والأغريقية ونشوء المنازعات بين الأجانب والمصريين واختلاف اللغة الأغريقية عن المصرية القديمة وضرورة الفصل في هذه المنازعات، أنشئت محاكم جديدة عرفت باسم « Koinodikion » أي « محاكم مختلطة » إبتدائية في الفيوم أو الإسكندرية وطيبة ومحكمة استئناف مختلطة في الإسكندرية (مقر الملك) تضم عدداً من القضاة اليونان أو المقدونيين والمصريين .

ولما انقضى الغرض الذي من أجله أنشئت هذه المحاكم زالت بزواله . وفي الوقت عينه تقلص حكم الدولة اليونانية المعروفة بدولة البطالمة وحلّت الامبراطورية الرومانية محله .

ولعلنا نجد فسحة من الوقت لنوافي القارىء بتفاصيل هذا النظام بين القضايا التي وصلت إلينا .

دكتور باقور لبيب
الامين في المتحف القبطي

عين شمس

العوبة الحرية

(هذه قصة كبيرة وضعها الكاتب الانجليزي المعروف فيليس أوتيهايم ، تحوي كثيراً من طرائف مناظر أمريكي ، وكثيراً من فضائح الطبقات العليا في انجلترا . ولما كان فيها مشابهة لكثير مما عندنا ، رأينا تلخيصها هنا ، وخاصة ما يتعلق منها بحرب الانتخابات البرلمانية ، فكثيرون من الناس يظنون أن الأساليب التي يقيم المتنافسون على النيابة فيها معركة على منبر ، ولكن لها أشباهها في أرق البلاد المتمدنة !)

كانت جلسة النبيل الانجليزي السير وولولي ، هذه الليلة في أحد مطاعم لندن الكبيرة على مائدة واحدة مع السيد يوسف باركر الأميركي . وابنته الحسناء الآنسة حواء .

ولم يكن بين النبيل الانجليزي وبين الاميركي ، وابنته معرفة سابقة ، ولكن المستر باركر قدم نفسه للشاب الانجليزي على أنه رجل أفاق . وابنته فتاة أفاقة !

واستكشف النبيل الانجليزي ان يقدم رجل اميركي نفسه الى رجل لا يعرفه بهذه الصفة وفي أول مرة يلقاه فيها . فكاد يتركه ويتخلص منه ، لولا أن جمال الفتاة الغالب أبقاه ، عندما جلست معه ، فرأى فيها جاذبية غريبة .

ولكن المستر باركر كان رجلاً مشتبهاً فيه لدى رجال البوليس ، ولعلّ المستر باركر ألقى بنفسه على هذا النبيل الانجليزي — عندما تخيل فيه ملامح النبلاء ، حتى يستطيع أن يتخلص من رجال البوليس اذا داهموه ، بادعائه أنه صديق لهذا النبيل !

وكان مع الاميركيين رجل آخر ، ومعه حزمة صغيرة في جيبه . فطلب إليه باركر أن يخرجها ويضعها على المائدة ، ففعل . وما لبثت أن اختفت تلك الحزمة والمستر باركر يقول : كان في إمكاني أن أنشلها من جيبك دون أن تشعر !

وفي تلك اللحظة أقبل أحد ضباط البوليس السري الانجليزي ، واتجه إليهم ، ووضع يده على كتف المستر باركر وحياه ، وطلب إليهم في أدب أن يتبعوه الى حجرة داخلية

للتفتيش ، بحجة سرقة بعض المارة والشرطة ! .

واحتج المستر باركر على هذه الاهانة التي ستلحق بصديقه النبيل الانجليزي . واحتج النبيل الانجليزي على هذا الادعاء ، فهو لم يعرف المستر باركر من قبل حتى يسميه صديقه ! .

وذهب باركر وزميله مع الضابط . ثم عادا ليتناولا عشاءهما الذي طلبه الاميركي وهو ذاهب مع الضابط ، الى أن يعود ، فقد كان واثقاً من عودته السريعة لانه لم يسرق شيئاً ، والحزمة التي كانت مع الاقمشة الاخر اختفت ! .

ورأى النبيل الانجليزي نفسه مسوقاً إلى أن يتصل بالرجل الاميركي وابنته الجميلة . وهو لا يدري لذلك سبباً إلا دافعاً خفياً نحو الفتاة .

* * *

واتضح للنبيل الانجليزي أن هذا الاميركي يعرف الكثير جداً عن معظم الاشخاص الذين يمرون بهم ، وعن أبناء لندن نفسها . ولعله كان يعرف الكثير عن (وولزلي) ولكنه أخفى ذلك عنه .

وعجب وولزلي أن تنحدر فتاة بهذا الجمال الى تلك الاعمال الاجرامية ، فقالت له إنها وأباها يعيشان بهذه الوسيلة ! .

وتشاء المصادفات أن يرى الاميركي بعض أعمال النشل أمام النبيل الانجليزي ، فيجد النبيل في ذلك تسلية بالرغم منه ، ويجد نفسه مسوقاً معهما ، ولكنه في نفس الوقت كان لا يفتأ يحاول إصلاح الفتاة ، وتهذيب الرجل ! .

واختلط الاميركي وابنته بكل أوساط المجرمين واللصوص في لندن الكبيرة ، وفي أندية القمار ، وانغمر النبيل الانجليزي معهما ، ولم يفلح في حملهما على الإقلاع عن تلك الحياة ، ولم تشفع لهما مساعدتهما على السرقات ، وعلى الخروج من بعض الورطات التي وقعا فيها ! .

واتفق الاميركي مع لص انجليزي خطر على الذهاب الى دار (الاوبرا) ذات ليلة ، فلما سأل النبيل حواء لماذا تفضل الاوبرا على غيرها قالت له وقال والدها : لان (الشغل) هناك أربح وأضمن .

ولما ذهبوا إلى هناك كانت شقيقة النبيل مع زوجها ، وهو لورد ، وكانت جالسة

الأميركي وابنته ، والشخص الآخر بمقربة منهما . وكان في صحبة الأمريكي زوجة أحد أصحاب الملايين ، وهي تتحلى بعقد ثمنه عشرون ألف جنيه .

ومال اللصان وتهامسا ، وعرف النبيل أنهما يتآمران على سرقته ، وكان ذا .

ولم تتبين النبيلة سرقة عقدها إلا عند الانصراف ، فأغلقوا الأبواب ، ولم يدعوا إلا النبلاء يخرجون . وبحث صديقهم فلم يقع لهم على أثر ، فأسرع الى المطعم الذي اعتادوا اللقاء فيه ، فوجدهم هناك ، ووجد العقد الثمين بين يدى المستر باركر الأميركي يتفرج عليه هو وابنته !

ولم يكد الانجليزي يراهم ويرى العقد مع صديقه اللص ، حتى طلب إليه أن يخفيه ولكن الأميركي لم يفطنه ، وظل يتأمله حتى دهمهم ضابط البوليس السري الذي يتتبع خطوات الأميركي وابنته وقد رآهما منذ قليل في الأوبرا ، فأخذ يراقبهما ، ولكن الأميركي اختفى عن ناظره كالمسحور . فلما اكتشفت السرقة عرف أن الأميركي هو السارق ، فأسرع خلفهم ، ودهمهم والعقد بين أيديهم ، فساقهم الى مركز البوليس ، ولشد ما أدهش النبيل الانجليزي أن جاء الخبير في الجواهر فقرر أن العقد زائف ، فأطلقهم البوليس واعتذر رئيسه !

وفي صباح اليوم التالي وجد النبيل الانجليزي العقد الحقيقي في جيبه ، فأرسله الى صاحبته ، من لص تائب !

* * *

وتكررت أمثال هذه الحوادث كثيراً ، ولكن الحادثة التي ساعدهم فيها النبيل الانجليزي مساعدة حقة ، هي عندما كانوا في المطعم الكبير ، وقد اصطحب الأمريكي لصاً انجليزياً آخر كبيراً ، وقرر معه لشل رجل أخرج حافظة نقوده من جيبه وأخذ يتأملها ، ولعله كان من رجال البوليس . وقد نصبوا هذا الفخ ليوقعوا الأميركي الذي دوخهم بسرقاته وعبقريته في السرقة ! .

ولشلت الحافظة بمهارة عجيبة ، وأقبل ضابط البوليس السري يجري وأمسك بتلابيب الأميركي وزميله اللص الآخر .

وسافرا إلى مركز البوليس ، ولكن النبيل ترك الفتاة التي تحبها — بنت الأميركي — جالسة في المطعم وأسرع لعله يستطيع انقاذ والدها ، وأخذ معه رجال البوليس ، ولكن الأميركي الماهر تمكن من اعطاء الحافظة للنبيل الانجليزي الذي كان أسرع من الأميركي في نشلها منه بمهارة عجيبة ، ووضعها في جيب صاحبها الأول !

وتركهم ضابط البوليس وهو يعض شفتيه ، وقد أدرك أن النبيل الانجليزي هو الذي فعل ذلك ، لأن الأميركي وزميله الآخر كانا محوطين برجال البوليس السري وهز الضابط رأسه ، ولعله كان يفكر في تدبير آخر !

وعادوا ثانية الى حراء قبل منتصف الطريق !

* * *

ولصح الضابط السري للنبيل الانجليزي أن يبتعد عن ذلك الأمر وابنته لأنهما مشبوهان وها ان أفلتا من قبضة القانون اليوم فلن يفلتا منه إلى الأبد ، فسيقعان في يده يوماً ما . . .

وليس من الكرامة أن يكون أحد النبلاء محلاً للشبهات ؟

والقانون لا يرحم . . .

فإذا ضبط النبيل معهما أثناء تلبسهما بارتكاب حادث سرقة ، اتهم بما يتهمان به ، ولكن النبيل لم يرتدع وكان كل غرضه أن يتزوج من الفتاة وينتشلها من تلك الحياة ، فيعرض عليها الزواج فتصده عنها أولاً في رفق ولين ، ثم تعود فتغلظ له ثم تلين ، ولكنه لا ييأس . . .

وعرض عليها ماله لتنفق منه هي وأبوها مرة وأخرى ، ولكنها قاطعته محتدة وطلبت إليه أن يكف عن هذا . . .

ولما صحبها إلى أحد أندية القمار القذرة ، ورأى أساليب المقامرين في السرقة ، ورأى كيف نشل أبوها الفين من الجنيهات كانت على مائدة القمار ، ورأى تألم الفتاة لهذه الحياة ، جاف لها ذلك ، فصمم على أن يصلحها بأية حال . . . ولكنها كانت تقول أنها ليست من طبقته ، فيبدو عليه أنه ابن أحد النبلاء ، وأما هي فابنة رجل أفاق !

ويدعوها الشاب إلى حفلة عشاء في أحد المطاعم الفخمة ليقدمها فيها إلى أقاربه

فيرفضان أولاً ، ولكن النبيل الشاب يلح عليهما فيقبلان ولكن على شرط أن يغير الأميركي وابنته اسمهما ، وان يحضرا الحفلة باسم آخر هو — مستر بندركوم وابنته !

ويقدمهما النبيل لاخته وأقاربه فيرحبون بهما ويحيونهما .

وتأخذ همة الشاب تتحدث إلى هذا الأميركي — بندركوم — وتخبره أن ابنها عند ما عاد اليهم من أميركا أخذ يتمدح لها أحد الأغنياء الكبار بهذا الاسم — بندركوم — ويتمدح ابنته ، فقد أكرماه وقضى معهما وقتاً طيباً .

وتخبر قريبها الشاب أنها أرسلت في طلب ابنها ليسلم عليهما لأنه يشتاق الى رؤيتهما واكرامهما كما أكرماه . . .

ويذهب النبيل ليخبر الأميركي بالورطة التي وقع فيها باتحال هذا الاسم . فيهرب الأميركي وابنته ، ويترك ورقة للضيف يعتذر عن الانصراف المفاجىء . ثم يكتشف النبيل حينئذ ان قلادة أخته سرقت ، وحلية عمته اختفت ، وخاتماً ثميناً جداً لاحد أقاربه فقد ، فيفكر الشاب ويسرع اليهما فيجد المسروقات فيعود بها حالاً ويقول ان أحد الخدم في المطعم لفلها ، وقد طرد في الحال !

* * *

ويتقابل الشاب والفتاة فتعتذر عن سرقة أبيها حتى لاقاربه ويعرض عليها الزواج أيضاً هذه المرة فتثور فيه ، لأن أقاربه عرفوا حقيقتها هي وأبيها ، ولكن الشاب يخبرها أنه لفق السرقة لاحد الخدم !

وهنا تشكره الفتاة ، وتبدأ تحبه حبًّا خالصاً !

* * *

ويذهب الشاب الى حفلة أخرى فيأخذها معه .

ويمثل الرجل عقداً آخر من زوجة الداعي . ولم يكن يزعج المدعوين من يثير الريبة غير المستر باركر الأميركي — أو المستر بندركوم — كما أطلق على نفسه أخيراً . . !

ولكن الشاب يدافع عنهما دفاعاً حاراً . . .

ويذهب اليهما حيث يقيمان ، فيجدهما يتصارعان ، ولما انتهت جولته معهما عاد الى بيته ،

وذهب في صباح اليوم التالي انيهما فلم يجدهما في مقرهما الأول .

لقد رحلا !

وسأل عنهما الخادم فلم يظفر بعنوانهما الجديد ، لأنهما لم يتركاه .

وليسقط في يد الشاب ، ويخرج آسفاً مغموماً ، ولكن الخادم يسرع خلفه ويناوله برقية لاسلكية آتية من أميركا تحمل لغزاً ، فقد كانت تقول — إن ه . . أبحر إلى انكلترا —

وقال الخادم انهما عند ما قرآ هذه البرقية ارتميا وأخذا في حزم متاعهما !

وعرف الشاب انهما يخشيان شخصاً يطاردهما من أميركا .

وبعد قليل يدق التليفون في بيت النبيل الانجليزي ، واذا بالمتكلمة هي حواء ، حبيبته وقد طلبته اليها ، وأنبأته انهما نزلا فندقاً من فنادق الدرجة الأولى . فلما ذهب اليها وسألها السبب قالت انهما أصبحا مشبوهين هنالك ، في الفندق القديم ، وليس هناك أحسن من الفنادق الكبيرة لذوي الشبهات ! .

وجلس الثلاثة يتحدثون قليلاً .

وأقبل ابن عمة وولزلي ، الشاب الذي كان في أميركا وعرف رجلاً وابنته يحملان إسم بندركوم ، وما كاد يرى حواء حتى أسرع نحوها وتناول يدها الجميلة بين يديه وهو يصيح — لقد رأيتك أخيراً ...

* * *

وكاد (وولزلي) أن يصعق عند ما رأى هذا المنظر العجيب ! .

وكادت الغيرة تقتله !

إذن هذا اللص الخطر ، وابنته الحسناء ، اللذان يتسميان في انجلترا باسم باركر ، ليس إلا بندركوم ، المليونير الأميركي وإبنته ، صاحب المصانع العظيمة التي تنتج الآلات الزراعية الشهيرة التي تحمل اسمه !

ويالها من حقيقة مفزعة

ويالها من أسرار محيرة عجيبة !

***

وما كاد وولزلي ينصكر في هذا كله ، وهو أشبه بالنائه الخمور ، حتى تقف سيدة أميركية في باب الحجرة الكبيرة ، توجه الخطاب الى الموجودين في داخلها ...

كانت هذه السيدة ترتدي ملابس بسيطة محتشمة ، هي الى ملابس الثراء الفاحش أقرب ، وتضع على عينيها نظارتين ، وتكلمت بصوت مرتفع :

« وأخيراً أعثر عليك ، يا سيد يوسف بندركوم ، أنت وابنتك الجميلة حواء ، وأتحمل في سبيل اللحاق بكما كل مشاق السفر الطويل والتعب الذي أورثتنيه بشذوذك الغريب ! هل تعرف كيف أتيت من أميركا الى هنا ، سعياً وراءك ، وقد تركت مصالحي هناك ، واعتذرت عن حضور المؤتمر النسائي الكبير ، لألحق بك ، وأنت تهرب من بلد الى بلد ، حتى عثرت عليك أخيراً ...

« يا سيد بندركوم أيها الرجل الذي يمتلك ثمانية ملايين من الدولارات ، ويتركها وراءه . ويصحب ابنته الوحيدة حبًّا في المغامرات ، وسعياً وراءها ، ولم يكفه الفضائح التي تركها وراءه في أميركا .. اني تعبت ، تعبت !

« من هذا السيد ؟ هل أستطيع أن اتكلم في حضرته أكثر من ذلك ؟ انني أعرف السيد الآخر الذي كان معنا في أميركا »

وهنا يخبرنا وولزلي انه خطيب حواء ، فتثور العجوز وتقول — هذا خطيب حواء ! من يدري من يكون ؟ لعله أحد اللصوص الذين تعرّف اليهم السيد بندركوم في مقهى من مقاهي اللصوص . . . لعله مجرم وضيع من هؤلاء الذين يسعى السيد بندركوم وراءهم دائماً . . . لماذا لا تتزوج السيد الآخر ، هذا الشاب الصغير النبيل ، الذي يحمل والده لقب إيرل ، إذا كان لا بد أن تتزوجي أحد الانجليز ؟ .

وهنا يقاطعها النبيل الصغير قائلاً — إن السيد وولزلي من أسرتنا ، إنه ابن خالي !

وتصمت العجوز الثرثارة !

ويأتي بعد ذلك ضابط البوليس السري الذي اعتاد أن يطارد السيد باركر — أي بندركوم — فتقول زوجته إن هذا السيد الضابط ، هو الذي أخبرها عن زوجها عندما اعطته أوصافه وذكرت له هويته !

وتعود العجوز إلى الثرثرة ، وإلى ذكر النعب الذي صادفته في سبيل سفرها ، فتقول للفتاة حواء :

— ولماذا جئت ؟ إننا لم نطلب إليك المجيء !

— ولكني يا إبنتي أسعى وراء صالحك ...

— لست إبنتك ، بل إبنة زوجك !

— نعم يا إبنة زوجي ، ولكنك في منزلة إبنتي !

وتعود الى الثرثرة واللغط ، ويهرب الأميركي من زوجته ويجلس للشراب مع الضابط ، ومع النبيل الانجليزي ، الذي أحبه حبًّا جمًّا !

* * *

واختلى وولمزلي وحواء .

وسألها عن السبب في سلوك والدها ، وسلوكها معه . هذه الحياة العجيبة ، فقالت :

— لقد أغرم والدي بحب المخاطرات . ودراسة الحياة الرديئة ، التي يحياها اللصوص والنشالون ، وقد قرأ كل الروايات البوليسية ، ومثلها ، وبزها في الكثير ، وكل أمله من ذلك لم يعدُ الدراسة ، فالاصلاح ، فالتهذيب !

— ماذا تقصدين الاصلاح والتهذيب ؟

— أقصد ما أقول ! ان والدي يتعمر بين اللصوص والمجرمين والنشالين ، ويتظاهر بأنه أحدهم ، وهو يتقن النقل والسرقة اتقانًا عجيبًا ، ولكنه إذا وجد من أحد اللصوص ميلاً الى الحياة الشريفة ، ساعده عليها !

— هذا عجيب ومحيّر !

— هو الواقع ، فكم أصلح والدي من أمور الكثيرين ، وساعدهم على الحياة الشريفة من جديد ، وسترى بعض ذلك !

— وماذا صنع بعقد زوجة المضيف الذي دعاني فتعرفتكما معي اليه ؟

— رددناه اليها من (لص شريف) !

— وماذا صنع بالآلهين من الجنيهات التي نقلها من منتدى القمار ؟

— لم ير أن يردها الى صاحبها ، لأنه مال مسروق كذلك ، ولكنه ضم اليها المئة الثالثة وأرسلها الى أحد المستشفيات لمساعدة على علاج الفقراء !

وجلس النبيل مع خطيبته حواء ، وزوجة أبيها ، يتناولون العشاء في المطعم القديم .

وتطلعت حواء فرأت والدها جالساً مع فتاة جميلة على مائدة قريبة .

ورآها وولزلي ، وحاول هو وخطيبته أن يصرفا زوجة السيد بندركوم عن هذا المكان كيلا ترى زوجها ومعه تلك الحسناء ، ولكنها رأتهما !

وطلبت من السيد وولزلي أن يذهب إليه ويدعوه ، فاعتذر ، ولكنها هددته بالذهاب بنفسها وعمل فضيحة في هذا المطعم المحترم ، فقام الشاب متألماً . واتجه الى صهره ، فابتسم ، وحياه ، وانحنى الفتاة بصحبته ، وأشار إليه أن زوجته جالسة معه هي وحواء ، ولكن السيد بندركوم تجاهل وقال له :

— أنت مخطىء أيها السيد ! ليس إسمي بندركوم ! إن إسمي يوسف . ه . باركر !

ولكن ... !

فالتفت الأميركي الى الفتاة الجالسة معه وسألها :

— هل تعرفين هذا السيد ، يا آنسة بلانش ؟

— كلاَّ . . .

— أنت مخطىء إذن أيها السيد ! لست أنا المقصود !

وعاد الشاب فأخبر العجوز ، فثارت وذهبت بنفسها ، ولكن زوجها تجاهلها كما فعل مع صهره ونادى خادم المطعم ليطردها !

* * *

وخرج الشاب وخطيبته ، وجلست العجوز تنتظر زوجها على باب المطعم ، ولكنه خرج من الباب الآخر مع حبيبته الصغيرة !

(الخاتمة)

مصطفى المهدى غنام

الشتاء

قالوا : الشتاءَ ، فقلت : أثقلَ حملنا ـ ثقلتْ حُمولُه
قد عاث في حُسن الطبيعة حسبما اتجهت ميولُه
الشمس ، وهي الشمس ، جا رَ على رسالها رسُوله
أطفا بهجتها ، وأ ثَر في نباهتها خموله
وضبابُه — لا كان — وَا راها ، وشجّعه فُضوله
يا للحبيب بدا ولكن صدّهُ عنّا عذوله
والجو مالَ ببرده والليل طال قُلّ طوله
والشهب قد كملت لدي ه ولم تنشّطها طبوله
فبدت سماء الله كالـ ـميدان منكولاً خُيوله
والطير طُيّرَ أنسهُ عنه ، وأنّى ما يَقوله
والغصن بين يديه عا رٍ ، كاد يمحوه مُحوله
والروض قد ماتت نضا رته وأبّنها ذبوله
نزل الشتاء به فأصـ ـبح لا يُرى إلاّ طُلوله
وكذا المنازل لا يمثّـ ـلها لنا إلاّ منزله

شاعر البرامكة

نتحدى !

كنت أول من كتب مبيناً عن الأغراض الخفية التي تنطوي عليها شركة « الكاتب المصري » وهي شركة لتطبع والنشر وبيع الورق المضغوط وغيره من أدوات الطباعة ، وراعني أن يكون الدكتور طه حسين عميل هؤلاء الذين إن تجردوا من كل شيء فلا يتجردون من أنهم هراري وسيكوريل ، ومن أسطورة أنهم من أبناء شعب الله المختار ، ومن خرافة أن فلسطين أرض الميعاد ، ومن عقيدة أن فلسطين وشرق الاردن وسوريا هي وطنهم الأول ، وأن العراق ومصر والسودان وبلاد العرب هي عالمهم الحيوي ، وأنهم أرقى الأمم وأحق الشعوب بملك الأرض ، وأنهم السلالة النقية ، يحيون بذلك الفكرة السلالية التي قامت عليها الفكرة الحاطئة في المانيا في عهد خليوم ، وتجلت بمظهرها الأسوي في عهد هتلر.

وان لي لعقيدة لن تخرج من روحي أو تخرج معها نفسي ، هي عقيدة أن كل صهيوني يهودي أولاً ، وأن كل يهودي صهيوني بعد يهوديته ، وأن الحرب التي يشنونها في فلسطين حرب اعتداء ، وأن أنظارهم تتطلع الى الشرق الأدنى برمته ، وأن يهود العالم أجمعين ، وفي أي ركن من أركان الدنيا ، يتطلعون الى اليوم الذي يسودون فيه الشرق ، ثم من بعد ذلك يسودون الدنيا ، لأن هذا الشرق هو ولا شك مفتاح العالم المتحضر .

وقد نشرنا مع هذه الكلمات كتاباً من الدكتور « طه حسين » نشرته جريدة الدفاع في « يافا » في شهر اكتوبر من سنة ١٩٤٥ ، واحتفظنا به طوال هذه المدة أي حوالي سنة وشهرين لعلّ الدكتور وشيعته يحققون نبوءته التي تنبأ بها فيه إذ قال :

« ومن يدري لعلّ خصوم هذه المجلة يبهتون في يوم من الأيام حين يرون فيها خصومة عنيفة للصهيونية وهجوماً عنيفاً على ظلمها ودفاعاً عن العرب في وطنهم فلسطين » .

وإني أتحدّى طه حسين أن ينقل العبارة الآتية وينشرها في مجلة « الكاتب المصري » مهورة بإمضائه الكريم إن كان من الصادقين :

« أنا طه حسين المصري العربي المسلم ، أعلن على صفحات مجلة « الكاتب المصري » أن الصهيونية إفك وعدوان على العرب ، وأنها تحاول أن تخرج العرب من ديارهم أو تستعبدهم فيها ليكونوا لها خدماً وعبيداً وإني أبرأ الى الله من اليهود والصهيونية ، وأن عقيدتي العربية ، ودِيني الإسلامي ، يأبيان أن يكون وطن عربي محالاً لمقاصد هؤلاء الآفكين الذين هبطوا فلسطين بعد أن لفظتهم أوطانهم ، وإني أومن بما يؤمن به العرب أجمعين أن فلسطين إما أن تظل عربية ، وإما أن يدفن آخر عربي في ثراها » .

هيا سيدي الدكتور ، إن كنت من الصادقين فانقل هذه العبارة في « الكاتب المصري » وأمهرها « بإمضائك الكريم » ، تؤمن بأنك عربي مصري مسلم ، وإلاّ فقد لزمتك الحجة بما قيدت به عنقك من وعد صريح بأن تشن في « الكاتب المصري » خصومة عنيفة على الصهيونية ، وأن تدافع عن العرب في وطنهم فلسطين ، ولكنك سوف لا تفعل ، وغالب الظن أنك لن تفعل ، فانك لست من العروبة بحيث تفعل .

ولا نتحدّاك وحدك بل نتحدّى معك كل هيئتك من الذين أخرجت لهم كتباً بمال اليهود أو تعاقدت معهم على أن تخرج لهم كتاباً لا يزال تحت الطبع أو كاتب أجرته ليسوّد صفحات من « الكاتب المصري » ، نتحدّى هؤلاء جميعاً إن كانوا عرباً مسلمين أو نصارى أن ينقلوا أو ينقل واحد منهم هذه العبارة وينشرها مهورة بإمضائه الكريم . أما اذا فعلوا فقد آمنّا بعروبتهم وإسلامهم أو نصرانيتهم ، وإلاّ فان الحجة التي تلزمك تلزمهم أيضاً بالتبعية لك ، وأقل ما في ذلك أن يصح رأينا الذي قلناه وهو أن أهون ما في هذه الشركة من مفاسد ، أن تكم أفواه مئات الكتّاب اذا ما ارتبطوا معها بمصالح مادية ، ومن أطعم فاه ، استحت عينه .

هيا سيدي الدكتور : تشجع قليلاً ، وتذكر قولة عمر بن الخطاب « ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم » .

اسماعيل مظهر

كتاب من :

الدكتور طه حسين عن القضية العربية

كان السيد الاديب خليل شطاره قرأ مقالا في مجلة «الصياد» البيروتية القراء فيه اتهام للدكتور طه حسين بشيعه الصهيونية. فبعث بكتاب الى الدكتور جاءه عليه الرد التالي :

تلقيت كتابك وانا اشكره لك اجمل الشكر واحب ان تطمئن الى انهم وقد انفقت حياتي كلها في خدمة الادب العربي لا يمكن ان انحرف عن حب العرب وخدمتهم في ميادينهم المتعددة .

فاما الشائعات التي حدثتني عنها فان مصدرها المنافسة التجارية من جهة والضغينة السياسية من جهة اخرى والحسد البغيض من جهة ثالثة والشر لا يثمر الا شرا .

وخلاصة هذه القضية ان سبعة من اليهود المصريين قد اشتركوا في عمل تجاري صرف قوامه نشر الادب الغربي قديمه وحديثه ونقل الجيد من الآداب الغربية الى لغة الضاد وطلبوا الي ان اكون مشيرهم في ذلك فقبلت بعد ان استقصيت واحسنت الاستقصاء وتبينت ان الامر لا يتصل ولا يمكن ان يتصل بالصهيونية من قريب او بعيد .

ونحن نصدر مجلة « الكاتب المصري » وهي مجلة مصرية عربية ظهر العدد الاول من اعدادها وانى التحدى من شاء ان يجد في هذا العدد وفي الاعداد التي ستليه اشارة للصهيونية او تاييداً لها .

ومن يدري لعل خصوم هذه المجلة يهتدون في يوم من الايام حين يرون فيها خصومة عنيفة للصهيونية وهجوما عنيفا على عظمائها ودفاعا عن العرب في وطنهم فلسطين .

وما اكتب اليك هذا دفاعا عن نفسي ولا عن المجلة فما شعرت قط بالحاجة للدفاع في هذا الموضوع وانما اثر في نفسي كتابك الكريم فاحببت ان يطمئن قلبك وان تنقل بأني لن اخلف ظنك ولا ظن أحد من العرب انما مثلي ومثل الذين يشيعون عني وعن المجلة كلة السوء ما قال الشاعر العربي القديم

عيشا مريئا فغير داء مخامر
لعزة من إعراضنا ما استطلت

١٥ اكتوبر — طه حسين

الكنوز النفيسة

في القمامات الخسيسة

كثيراً ما تكون المصادفات وحدها سبباً لتكشف كنز ثمين أو إظهار شيء دفين . وقد جاءت الأنباء حديثاً بأن المنقبين في مدينة رومية قد عثروا على تماثيل رومانيين أثريين في حالة جيدة ، وذلك حينما كانوا يحفرون نفقاً تحت أرضها .

ومما يجدر ذكره في هذا الشأن أنه في سنة ١٩٤٠ اكتشفت في أراضي ليبيا خرائب معبد ، زعم علماء الآثار التاريخية أنه هيكل كليوباترة . وهو معبد قائم في حفرة عميقة أحدثتها قنابل الطائرات القاذفة لقنابل عند ما كانت تنهال على ذلك الميدان .

وبعد ذلك بعامين كان الجنود الأميركيون يحفرون الأرض في ضاحية مدينة بايستم Paestum بإيطالية ، وذلك لاستخراج الحصى منها لحصب الطرق ، فعثروا على ضريح من العصر الحجري ، فاض بآثار من ذلك العهد ، رجح العلماء أنها أقدم التحف التي كشفت من نوعها حتى الآن .

وفي شتاء سنة ١٨٩٩ كان الدكتور جورج ريزنر العالم الأثري المشهور ، يدير مجموعة من أعمال التنقيب عن الآثار التاريخية في بلدة تيتونس (تعلون) Tebtunis بمصر ، وكانت أعماله تسير سيراً وئيداً . وكانت تسود خيامه التي ضربت في الصحراء مظاهر اليأس ؛ حيث كان عمال التنقيب ، كلما توغلوا في الحفر ، نبشوا تماسيح محنطة لا غير . وكان قليل منها لا أهمية له ، وسائرها لا نفع منه يرتجى . وكانت الشروط المعقودة بين الدكتور ريزنر وعماله العرب ، تقضي بأن لا يدفع لهم أجراً إلا عن الشيء الثمين الذي يستخرجونه من جوف الأرض . ولذلك صدف أخيراً عن مكافأتهم على هاتيك التماسيح العقيمة الملفوفة بلفائف التحنيط . ومن حسن حظ أحد الأعراب أنه كان ذات يوم يحفر حفرة أثرية وهو مغتم غيظاً فأخرج لفيفه وحطمها على سطح الأرض ، فتناثرت أعضاؤها هذر مذر ، كما كان العامل يتوقع . ولكنه لم يلبث أن انقلب ممتعضاً ، ابتهاجاً إذ تبين أن الدنانير التي تطايرت من جوف التمساح ، كانت أورلئاً بردية تديمة مصورة صوراً رائعة ، هي التي كان ينقدها

مخدومه، على أن يكافىء نابشها أسخى مكافأة. وتحد ذلك شرع الدكتور ريزو في تحطيم جميع هاتيك التماسيح المحتقرة التي كان قد أمر بنبذها قصيًّا، تحطيماً تامًّا، إذ تذكر من فوره أن ورق البردي الذي كان القدماء يلفونه في زوايا الفسيان كانوا يستعملونه لف الأشياء والطبقات الداخلية لتلك الحيوانات المحنطة جميعها، فصارت المستندات التي أتيح استردادها بتلك الوسيلة، ضمن المجموعة النفيسة التي تحتفظ بها حالياً جامعة كاليفورنيا

ثم إن أغلب نماذج الأواني الزنكية الأولية البريطانية الموجودة الآن في المجموعة الأثرية المشهورة عثر عليها مكتشفوها إما في الآبار، وإما في مجاري القاذورات وإما في الخزائن القديمة المغلقة وإما في وسط طبقات المساكن العتيقة. وبيان ذلك أن الشركة القديمة لصناع الزنك كانت حظرت على أعضائها ترميم أي وعاء مكسور من هاتيك الأوعية الزنكية. وكان يحدوها على ذلك مراعاة مصلحتها، إذ رأت أنه خير لصناعتهم إنتاج الأواني الجديدة وبيعها، من ترميم السابق استعمالها، فعجز أرباب الصحون والكيزان والشمعدانات الزنكية عن إيجاد الصناع الماهرين الذين يستطيعون إصلاحها، فألقوها في أماكن خفية وزوايا مهجورة، وهي تلك المواضع والزوايا التي ما فتئت تستخرج منها بين حين وآخر. وكثيراً ما تكون العوامل الباعثة على فقد الكنز أو اختفائه، خطيرة الشأن، مثل الظروف التي تلازم الكشف عنه.

وقد تحتفي مأساة قديمة من المآسي التي كاد الناس ينسون تاريخها. وذلك مثل مجموعة أورفيتو الخامسة بالأواني الصينية الجميلة التي ألقيت في بئر بناءً على أمر قيصر علي أراد بذلك تطبيق القواعد الصحية، قصد منع انتشار وباء الطاعون، وذلك بارغام الجمهور على نبذ أطباقهم الجميلة. فحدث بعد انقضاء قرون من الزمان، أن حل ساكن جديد في ذلك البلد الواقع على التل الايطالي القديم، فأخذ ينظف بئر الدار السابقة الذكر، فعثر على حطام الأواني الصينية البديعة المشار اليها، فبذل قصارى جهده في اعادة تركيبها وترميمها حتى عادت كأصلها، ولما نجح في عمله، جعلت عائلته تقلد صناعتها فراجت بضاعتها رواجاً عظيماً، إذ هي تحمل طابعاً غريباً هو رسوم العصور الوسطى التي تؤلف من أرضية بيضاء يشاها لون أخضر زمردي أو أصفر برتقالي. وفي إثيوبيا كانت مجموعة كتب قبطية خطية

كاملة في دير من ديورتها ملقاة في جب وقاية للكتب من نهب الأعراب إياها عندما غزوا بلاد الحبشة . ثم تمكن أحد الشيوخ فيما بعد ، من استعادتها فابتاعها منه المستر ج . ب . مورجن [1] وذلك بمبلغ ٤٠٠٠٠٠ دولار . وفي أواخر القرن التاسع عشر دمرت النيران قصر تلينجين القديم في هولندة ثم بيع ما بقي من أثاثه الذي نجى انقاذه من الحريق ، بالمزاد العلني . فتقدم اشرائه خمسة عشر تاجراً تواطأوا بعضهم مع بعض على ابتياع تلك التحف بأبخس الأثمان ثم بيعها فيما بعد بأبهظ الأسعار ليقتسموا الربح فيما بينهم . وحدث في أثناء انهماكهم في التصرف في هذه الغنيمة أن جاء صبي من أبناء أحدهم ، وجعل يعبث بعلبة رثة من علب الجواهر والحلي ، كانت مطروحة على الأرض نسياً منسيًّا فلمس بغتة نابضاً (زنبركاً) خفيًّا كان مثبتاً فيها . فسمع حينئذ طقطقة أعقبها بروز درج خفي قدس الغلام يده في محتوياته الوضاءة الألوان وأخذ يلعب بالحشوة اللامعة التي تكشفت له ، غير انه لم يلبث أن اتجهت اليه أنظار أصحاب الشأن وذلك حينما ثار وأفشى سر ذلك الكنز . فأخذ يبادلهم التهاني، فأقصوه توًّا عن موقفه حيث وجدوا في ذلك الدرج مجموعة من الماس والياقوت ، وكانت جميعها من الأحجار الكريمة المشهورة والحلى النفيسة التي كانت مفقودة منذ عهد طويل في قصر تلينجين الذي كانت جاكلين أف باتافيا كونتيسة هولندا وزيلند ، سجينة فيه حتى توفيت سنة ١٤٣٧ وكانت قد نجحت في اخفاء جواهرها تلك عن أبصار ظالميها منذ زمن طويل . ونجم عن تلك اللقية ثراء أولئك التجار وبلوغهم منزلة مالية لم تعلن للملأ قط ، فقيل إنها أربت على نصف مليون من الدولارات . وكان رجل من المكسيك الجديدة يثبت [2] بئراً فعثر على دلو ملأى بالنقد والحلى الاسبانية القديمة بلغت قيمتها وزناً تسعة آلاف دولار ، فقيل إنها من المجموعة الثمينة المشهورة التي جمعها ج . س . كاندلاريو التاجر الهندي الذي كان مستوطناً ذلك المكان . ولكنهم لم يكتشفوا سبب اخفائها في تلك البئر . وكذلك عثر بعض فعلة باريس على كنز من عهد لويس الخامس عشر في غضون هدم مبنى قديم في شارع موفيتار .

عوض مبشري

(١) هو جون بيربونت مورجن ولد سنة ١٨٣٧ وتوفي سنة ١٩١٣ مالي أميركي مشهور وجامع التحف المعروف (٢) ثبت البئر — نبتها وأخرج ترابها

تخريج كتاب الملل والنحل

للشهرستاني [1]

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى . بأسئلك اللهمّ : أستلهم الصواب ، وأستهدي الرشد ، وأتقي مواطن الزلل .

هل هناك فلسفة إسلامية ؟ وهل هناك ثقافة عربية ؟ وهل هنالك تفكير شرقي ؟ وإن كان ، فما قيمة هاتيك الفلسفة ؟ وما طابع تلكم الثقافة ؟ وما ينابيع هذا التفكير ؟ وحتى إن لم يكن ، فلمَ ؟ وكيف عاش الشرق — أو الشرق الإسلامي — طوال هذه المدة ؟ وكيف وصلت إلينا معارف السابقين — من يونان وغيرهم — وليس بيننا وبينهم إلاّ غرب سادر ، أو شرق قادر ؟؟

هذه أسئلة ضلّ في الإجابة عنها كثير من المتفلسفين ، من مستهل القرن التاسع عشر إلى اليوم ، بل وهاتيك قضايا لم تجد بعدُ القاضيَ العدل المنصف ، على رغم كثرة القضاة الذين تصدّوا لإصدار أحكامهم فيها بمختلف اللغات ، وفي شتى الجهات .

وعندي أنّ الجواب عن كل سؤال من هذه الأسئلة . أو الحكم في كل قضية من هاتيك القضايا — يحتاج إلى : مستندات صريحة واضحة ، ودراسات مستفيضة مفصّلة ، ومدافعين أقوياء وقضاة عدول ، أعني يحتاج إلى تخريج تراث السابقين الفكري تخريجاً علميًّا .

وفي يقيني أنّ من الواجب لعدالة مثل هذا الحكم أن تُقدَّم مستندات القضية بأيدي أصحابها وألسنتهم ، أو بأيدي محاميهم والمدافعين عنهم ، أو — على الأقل — بأيدي أصدقائهم ، ليستطيعوا الدفاع عن وجهة نظرهم ، وإبراز مكنون ضمائرهم ونيّاتهم ، وشرح

(١) هذا هو عنوان الرسالة التي تقدّمتُ بها اللجنة العلمية المؤلفة لذلك بدار كلية أصول الدين برئاسة سعادة الدكتور منصور بك فهمي ، والتي حصلت بها على شهادة العالمية من درجة أستاذ بدرجة ممتاز في التوحيد والفلسفة من الجامعة الأزهرية بتاريخ ٢٤ من جمادى الثانية سنة ١٣٦٥ هـ الموافق ٢٦ من مايو سنة ١٩٤٦ .

ظروفهم ومقاصدهم، فيهيء الحكم أقرب إلى العدالة، وأجدر بالقبول. كما أن العدالة تقتضينا أن نرفض أي حكم في قضية مّا أغفلت مستنداتها، أو قُدّمت هاتيك المستندات بيد الخصوم أو الثائرين، أو الاعداء.

وكم كان جميلاً من «ألفرد جيوم» — المستشرق الانجليزي المعاصر أن يقول: «ولم يحن — بعدُ — الوقت الذي نتمكن فيه من أن نكتب تاريخ الفلسفة الإسلامية، وحتى إذا قُدّر لنا أن نشر ما يتصل بها من بحوث مودعة في المخطوطات، ومبثّثة في مختلف المكاتب في أوربا والعالم الاسلامي، وقُدّر للعلماء أن يتداولوا هذه المطبوعات — فإن علينا أن ننتظر حتى تهيء الأبحاثُ الخاصّةُ والدراساتُ المسهبةُ السبيلَ إلى الاحاطة بالفلسفة الإسلامية، احاطة تتناول مداها الواسع» (تراث الإسلام ص ٣٧٢ طبع لجنة التأليف)

أفلا يجب علينا أن نعمل بكل عزم وحزم وقوة وسرعة على تخريج كنوز السابقين تخريجاً علميًّا، ثم نتدارسها دراسة مستفيضة مستقصية، فنهيء بذلك أنفسنا للحكم، ونجعل الأساس السابق — لمعلوماتنا العلمية — لنقيم عليه البناء اللاحق، ونكمل معلوماتنا؟؟

وكم نحن مدينون بالشكر لجهابذة المستشرقين الذين أماطوا اللثام عن كنوز تراثنا الاسلامي، وألقوا أضواء مختلفة على كثير من ثقافات الشرق العربي وعلومه، وأفنوا الكثير من وقتهم وشبابهم وحياتهم... باحثين منقبين، باثّين الآراء، مصدرين الأحكام، بقدر ما تسمح لهم ثقافتهم العربية، وإخلاصهم للشرق والشرقيين.

ويحسننا — الآن — أن نستمع الى بعض أعلامهم يحدثنا عن موقفهم من العربية: يقول «نللينو»: «فاعتبروا أننا المستشرقين الباحثين في أوربا عن لغات أهل الشرق واعتقاداتهم وعوائدهم وآدابهم وتاريخهم وجغرافيا بلادهم... وهلمّ جرًّا... ما تعلمنا تلك اللغات الا بمطالعة الكتب... فبالجملة: صار مثلنا كمثل الصم والبكم، وأصبحنا في كنوز العربية مترددين، وفي بحورها متحيرين، مع صرف همتنا اليها، ومثابرتنا عليها» (علم الفلك ص ٣ طبع روما).

ومع هذا فانا عاجزون حقًّا عن شكر هؤلاء المستشرقين الأعلام، الذين أيقظونا من سباتنا، ودفعونا الى المحافظة على تراث آبائنا وأجدادنا. نقبوا في ديارنا، فنفضوا الكرى عن عيوننا. نعم نعلن عجزنا من شكر هؤلاء القوم، حتى نرد اليهم جميلهم، ولا أقصد أن

نكون مستغربين كما أن نبيهم مستشرقين ، بل أريد أن نكون شرقيين ، نعني أولاً بتصفية تراث الشرق وتقديمه : سهلاً لمن أراد ، شهياً لمن استطعم ، عذباً لمن استشرق ، فنصحح بذلك أحكام الماضي الجائر ، ويصحح المستشرقون معنا ـ مشكورين — أحكامهم الماضية . ومن يدري ، فلعل نفساً من هذا التراث يهدي الانسانية ، ويردها الى مقررات الوحي ، والعقل والضمير .

ولكن ما السبيل الى ذلك ؟ السبيل إلى ذلك واضحة جلية ، ينحصر — الآن — في تخريج مؤلفات السابقين بنقدها داخلياً وخارجياً . ونعني بالنقد الداخلي : تحرير الآراء ، وتجريدها مما علق بها من محار النساخ وأصداف المتعالمين ، ويدخل في ذلك دراسة أهواء المؤلف ، وميوله وشخصه . ويجب لهذا أن يجرد الباحث نفسه من شخصه وعصره ، ويلقي بنفسه في أعماق من يريد أن يخرج له أو يكتب عنه ، ويتطفل معه في ثنيات عصره ومصره ... حتى ينطق بلسانه ، ويكتب بقلمه ، ويخطو بقدمه .

ونعني بالنقد الخارجي : الحكم على هذه الآراء من خارج المؤلف ـ بعد تحريرها ـ ويجب لهذا أن يجرد الباحث نفسه من ميوله وأهوائه ومعتقداته ... حتى يكون عدلاً في حكمه ، موفقاً في تقديره ...

لكل ما سبق ـ ولأكثر مما سبق ـ انصرفت همتي الى تخريج كنوز السابقين ، وتقديم المستندات العلمية بين يدي أحكامنا ، على رغم العقبات التي تعترض هاتيك السبيل ، والصعاب التي قد تستصعب إذا فترت الهمة ، تلك الصعاب والعقاب التي يجمع أعلام المستشرقين والشرقيين ـ من الذين تحملوا مشاق التخريج العلمي ـ على انه لا يمكن تقديرها الا من استهدفوا لها ، ووهبوا أنفسهم وتميسهم لخدمة الانسانية جنود مجهولين .

فانتدبت نفسي لفتح باب هذا العمل ـ الجليل في قوته ، الناذيذ في صعوبته ـ أمام الشباب المصري ، الناهض الفتي ، ذي المضاء العازم ، والعزم الماضي ، والأمل الدائم . وكم أود أن يتقدم طالبو الاجازات العلمية من هذا الشباب بهذا العمل ، الذي انفرد به حيناً من الدهر كبار المستشرقين . حتى وفق الله كبار أساتذتنا الشرقيين لاقتحام ميدانه ، فأهدوا إلى الانسانية عامة ، والى المكتبة العلمية خاصة خير ما يهدي عالم انتفع بعلمه ، ونفع الله به .

وأخذت أفكر فيما عساه أن يكون بأكورة إنتاجي ، لأتقدم به لنيل درجة الاستاذية من الجامعة الأزهرية في التوحيد والفلسفة ، وأكون بذلك أول من قدّم رسالة من هذا الطراز لنيل درجة علمية في مصر . . . فأشار عليّ — في توجيهه الحكيم ولفتته الكريم — الدكتور محمد البهي ، بتخريج كتاب الملل والنحل للشهرستاني . والشهرستاني حبيب الى نفسي من ابتداء التعليم العالي — من ثلاثة عشر عاماً — أو يزيد ، إذ هو المثل الغلب لمقالات أهل العالم الى يومه ، بيد أنه واسع الآفاق ، رحب الجنبات . وكم ألحّ عليّ كبار الأساتذة ألاّ أخاطر بتخريج الكتاب كله ، مكتفين بتخريج جزء منه ، والوعد بتخريج الباقي ، ولكن . . . ولكن طبيعة العمل ، وما استلزمت الحصول عليه من المراجع والأصول ، وما وقر في نفسي من أن أفتح باب التخريج العلمي على مصاريعه . . . كل هذا ، وأكثر من هذا ألحّ عليّ أن أنجز الكتاب مرة ، فآثرت أن أخرّجه كله .

وأظن أنه يكفي لإيثار تخريج كتاب « الملل والنحل للشهرستاني » أن يشعر الإنسان أنه من صاحبه أمام عالم في عالِم ، وأنه منه أمام كونٍ في كتاب ، وأن يعلم أن هذا الكتاب طوّف بالعالم أو كاد . وما ظنّك بكتابٍ رحبت به معظم الجهات ، وتلقفته عتى اللغات ، فظهرت له كثير من الترجمات ، فضلاً عن مختلف الطبعات ؟ . ثم ما ظنك بكتاب أثنى عليه أقطاب علماء المشرق والمغرب — في القديم والمتوسط والحديث — بخير ما يُثنى به على كتاب ؟ فيقول التاج السبكي عنه : « هو عندي خير كتاب صنّف في هذا الباب » ، ويقول « ألفريد جيوم » فيه : « لا يمكن الاستغناء عنه في أي زمان » .

فإن حقّ لسائل أن يقول : لقد نشر « كيورتن » الانجليزي هذا الكتاب ، وطبع في لندن سنة ١٨٤٢ وسنة ١٨٤٦ م ثم ليبزج سنة ١٩٢٣ باللغة العربية ، كما طبع مراراً في مصر مجرداً وعلى هامش الفصل لابن حزم . . . فلِمَ إذاً تجهدك ؟ ولم تتعب نفسك ؟ وعلام تخرّج كتاباً قد خُرّج ؟ ؟ . . . إن حقّ لسائل أن يقول هذا ، وجب عليّ أن أقول له : إن « كيورتن » — على رغم إجلالي وإكباري لمجهوده الجبار — لم يتعمق فهم نصوص الكتاب ، بل ولم يختبره كله ، كما أنه لم يفقه كثيراً من فقه لغته ، ولم يروّض نفسه على اكتناه أسلوبه ، ولم يتبع حتى أصول التخريج العلمي التي رسمها لنفسه في نفس الكتاب ،

وفوق هذا ، فقد فرض رأيه على كل قارىء ـ وقارئة ضمناً ـ ، إذ لم ينبه قراءته المختلفة للنسخ التي اعتمد عليها ، مع أنه مستشرق يسير في العربية بذوقه الخاص ، وفي دائرته الخاصة ، بل لقد احتفظ بملاحظاته ، وتعليقاته ، والقراءات المختلفة ، والفروض الخاطئة ، وثبت الأخطاء الكتابية والمطبعية . . . إلى مقدمة الترجمة الانجليزية ـ للكتاب كما يقول ـ تلك الترجمة لم يظهر شيء منها حتى الآن ، وقد مضى عليه أكثر من قرن من الزمان . بل وحذاء كيورتن» نفسه ، يسجل بيده قصوره وتقصيره ، فيصرح بأنه لم يتأمل كل جملة بأقصى انتباه ، ولم يختبر المؤلف كله ، ولم يحقق مخطوطتي « اكسفورد » مع وجود المساعدين المستعدين لكل ما يطلب . وكأن شعوره بتقصيره وخطئه ، وإحساسه بأن القراء قد أمسكوا بخناقه ـ جعلاه يرتبك في اعتذاره ، ويعتذر في ارتباكه ، فيرتعش القلم في يده ويضطرب . ويسطر كلمات مرتعشة مضطربة ، حيث يعيد بترجمة الكتاب إلى اللغة الانجليزية ويرى أن هذا عبء كبير ، ثم يقول : « وهذا العبء سوف يأتي عليّ ضرورة التأمل في كل جملة بأقصى انتباه ، والعودة إلى اختبار المؤلف كله ، وعندي أمل في تحقيق المخطوطتين جميعاً الموجودتين في « اكسفورد » ، اللتان ـ الى الآن ـ لم أبحث منهما إلا صفحات مليئة بالصعوبة والغموض ، بمساعدة الأستاذ «ريو» الذي هو على أتم الاستعداد لإجراء كل التحقيقات التي أطلبها منه » . . . وعلى هذا فلا يصح الاعتماد على طبعة «كيورتن» ولا الوثوق بها .

وأما طبعات مصر للكتاب ـ سواء المجردة منها أو التي على هامش ابن حزم ـ فيؤسفنا أن نقرر أنها ـ ككل الطبعات القديمة ـ ليس فيها غناء علمي الآن لأنها لم تُعن بالنصوص عناية كافية ، وحتى ما عُني منها بالنص فمن مخطوطة واحدة وتصحيح عاجل طائر ، ولأنها خالية من علامات الترقيم التي تعتبر إرشادات هادية في القراءة الحديثة ، ولأنها خالية ـ أيضاً ـ من التقسيم والتبويب والتفصيل ، مما يجعل القارىء تائهاً في بيدائها ، ولأنها ـ مع كل هذا ـ خالية من الفهارس التي تصل القارىء بسرعة ويسر إلى غايته من الكتاب ، فتوفر عليه وقته وجهده . . . ولأنها . . . ولأنها . . .

وفوق هذا ، فإنا وجدنا كل طبعات الكتاب السابقة وترجماته ، بل وحتى مخطوطاته

يعمها الاضطراب ، ويكثر فيها التشويه ، ويشيع فيها النقص . . .

ويحسننا أن نعلم أن كل الطبعات ، وكل الترجمات ، وجل المخطوطات لهذا الكتاب ، قد سقط منها « نقل (الجيهاني) عن زرادشت في المبادىء » وهو موضوع خطير وجديد لم نعثر عليه بعدُ في مصدر آخر ، وقد شغل هذا السقط إحدى عشرة صفحة كاملة .

وأن نعلم كذلك أن كل الطبعات ، وكل الترجمات ، والغالبية الغالبة من المخطوطات ، لم تستطع الوصول إلى المقدمة التي قدّم بها الشهرستاني كتابه للوزير نصير الدين ، تلك المقدمة الجليلة التي تنفرد بمباحث قيّمة : منها الشهدّي إلى تحديد زمن تأليف الكتاب وإثبات مذهب الشهرستاني الاعتقادي ، والنص على اسم الكتاب ، وسبب هذه التسمية . . . وهذه حقائق قيمة وضرورية ، ما كان لباحث كائن من كان أن يقطع بها . بل ربما استطعنا نحن ذلك لولا هاتيك المقدمة التي تفردنا بتخريجها ، بعد أن فتشنا ما وسعنا التفتيش ، وحققنا خضمّ المظان العلمية ، وقلبنا صحائف المكتبات العامة والخاصة . . . حتى خلصت لدينا أصول كثيرة للكتاب : ترجمات ، وطبعات ومخطوطات .

ولما كان الإنسان لا يمكن أن يتخصص في كل نواحي العلم ، ولا يستطيع أن يحيط بشتى الفنات . . .

ولما كان لا بدّ من الالتجاء إلى المتخصصين والاستعانة بهم ، خصوصاً في النواحي العلمية المترامية ، ليجيء الإنتاج العلمي أقرب ما يكون إلى الكمال ، فيصح الاعتماد عليه .

ولما كانت الاستعانة بهؤلاء المتخصصين لا تقف عند حدّ ما كتبوا ، بل الأولى — حتى وإن دوّنوا — الاتصالُ بهم في آخر لحظة — كلما أمكن — ليكون الاعتماد على رأيهم الأخير . . .

لما كان كل هذا ، فقد حرصت ، جهد طاقتي ، على أن أتصل بالأعلام المتخصصين مباشرة وأتلقى عنهم شفاهاً — ألفاظاً أو تحريراً خاصاً ما وسعني ذلك ، فإن لم أستطع التجأت إلى ما دوّنوا سابقاً وعوّلت على ما كتبوا من قبل ، في القديم ، والمتوسط ، والحديث .

ولذا جاءت مصادرنا على قسمين : قسم سميناه بالمصادر الناطقة ، وقسم سميناه بالمصادر للكتوبة . ونعني بالمصادر الناطقة : العلماء العاملين ، الذين أمدّونا بأفكارهم ، وتوجيهاتهم

وإرشاداتهم ، وعاونونا : بمجيداتهم ، وأقلامهم وأوقاتهم . . . كل في دائرة اختصاصه ، وقد بلغ عدد هؤلاء الجهابذة عشرين عالماً من مختلف الملل والنحل والأهواء ، فهل يفهم فكري ؟

وهكذا جُلْنا في الكتاب جولات وجولات ، مع كبار المتخصصين تارة ، ومستعينين بالله تارات وتارات ، بعد أن ارتمينا في أحضان صاحبه وصاحبنا أربع سنوات كاملة — بل يزيد — ليلاً ونهاراً ، غير حاسبين للزمن والنصب حساباً ، وتعلقنا معه في ثنيات سفره ومصره : نتسمَّع إلى خلجات نفسه ، ونتحسس مدركات حسه ، ولساير ولمات خدمة ، ونُطوِّف ما نُطوِّف معه ، ونتصل معه بالحكام والسلاطين ، ونعقد معه المجالس الوعظية والعلمية ، ونتصفح معه مآت الكتب والمراجع . ثم نقف عند كل كلمة من كلمات كتابه ، نستشيره فيشير علينا ، ونستوضحه فيوضح لنا . والحق أنا كنا طوال هذه المدة صادقين مخلصين : أسر لي ونهمت عنه

ثم أخذنا نتصفح كتابه وندرسه ، مبتكرين فهارسه ، منفردين بتقسيمه وتجزئته وتبويبه وتفصيله مقربين منظمين ، مطبقين كل ما رسمناه من قواعد « التخريج العلمي » . حتى خرجناه نقي الإهاب ، حسن الجلباب ، « يؤتي أكله كل حين بإذن ربه » . بعد أن بينا أن أول ما يلفت النظر في أمر « التخريج العلمي » اضطراب أمره لدى القائمين به ، وارتماش حبله في يد القابضين عليه : فبينا نرى المبالغ في الافراط ، إذ نرى المبالغ في التفريط ، وبين هذا وذاك نرى أفواجاً سلكوا طرائق قدداً . وقد عرضنا عشرين نموذجاً من نماذج التخريج العلمي لكبار المستشرقين والشرقيين ، وتعرضنا لمن أمسكوا بعنان هذا الموضوع في العربية نظريًّا . ثم قررنا قواعد جديدة للتخريج العلمي نظريًّا وعمليًّا ، نرجو أن تكون دستوراً للمشتغلين به ، ونبراساً للمتصدين له ، خصوصاً وقد اجتازت تلكم القواعد ميادين الامتحان ، وفازت — من يد كبار المتخصصين — بالامتياز.

ونحن في كل هذا ندوّن عمل ما صنعنا ، وما شاهدنا ، وما لمسنا ، وما لاحظنا ، وما درسنا وما استنتجنا ، حول كتاب الملل والنحل هذا ، قبل تخريجه ، وحال تخريجه ، وبعد تخريجه . فجاء عملنا على أربعة أنواع ، في أربعة مجلدات :

نوع اجتمع تحت عنوان « تمهيد لتخريج كتاب الملل والنحل للشهرستاني » ، ونوع ثان اجتمع تحت عنوان « الشهرستاني وكتابه الملل والنحل » . وقد ضمّ هذين النوعين مجلد واحد تحت عنوان « المدخل الى كتاب الملل والنحل » ، وقد اشتمل على ٢٤٥ صفحة من القطع الكبير .

والنوع الثالث نص الكتاب بمقارناته وعناوينه ، مقسماً مفصلاً . . . وقد تفرق في المجلدين الثاني والثالث ، اللذين شملا ٨٦٦ صفحة .

والنوع الرابع الفهارس الخمس التي ابتكرناها للكتاب ، مع فهرس خطوط . وفهرس الترجمة الألمانية ، وقد احتوى ذلك كله المجلد الرابع في ٢٨٤ صفحة .

وبذا يكون هذا العمل الجليل قد تمّ بحمد الله في ١٢١٥ صفحة من القطع الكبير .

* *

ويحسبنا الآن أن نمرّ سريعاً على كل نوع من أنواع هذا العمل ، موجزين ما وسعنا الإيجاز :

١ — المدخل الى كتاب الملل والنحل : ولعل تحديد الصفحات ، ووقت القارىء ، والحرص على تقديم عمل استغرق جوالي ١٣٠٠ صفحة تقديماً دقيقاً . . . يضطرنا إلى أن ننشر أمام القارىء الآن الفهرس لذلك المدخل ، فتنكشف بذلك الموضوعات التي طلجناها به ، وهاك نصه :

فهرس المدخل

القسم الأول : « التمهيد لتخريج كتاب الملل والنحل للشهرستاني » .

١ — واجباتنا

(١) الفلسفة الإسلامية : (ا) هل هناك فلسفة إسلامية ؟ (ب) وكيف نحكم عليها ؟ (ج) ومتى يكون الحكم عليها صحيحاً ؟ (د) الواجب علينا .

(٢) المستشرقون والتراث العربي : (ا) فكر وتقرير . (ب) المستشرقون واللغة العربية (ج) المستشرقون والفلسفة الإسلامية . (د) كيف نرد إليهم جميلهم . (هـ) الكنوز العربية وتأثيرها الخالد . (و) الواجب علينا .

(٣) السبيل إلى أداء هذه الواجبات : (ا) تخريج مؤلفات السابقين تخريجاً علميًّا .
(ب) النقد الداخلي والواجب له . (ج) النقد الخارجي والواجب له .

(٤) فتح باب التخريج العلمي على مصاريعه : (ا) صعاب التخريج العلمي ومشقاته (ب) واجب الشباب وطالبي الإجازات العلمية . (ج) التخريج العلمي وكبار المستشرقين والشرقيين . (د) باكورة انتاجي. (هـ) توجيه وإلحاح . (و) الواجب لطبيعتي العمل والأمل.

(٥) كتاب الملل والنحل للشهرستاني : (ا) ترجمات الكتاب إلى مختلف اللغات .
(ب) طبعاته في مختلف الممالك والبلاد . (ج) الثناء عليه من علماء المشرق والمغرب .
(د) الواجب علينا .

(٦) ليس في طبعات الكتاب السابقة غناء علمي : (ا) طبعات أوربا . (ب) طبعات مصر . (ج) واجبنا .

محمد بن فتح الله بدران

حضرة الاستاذ رئيس تحرير مجلة المقتطف الغراء

تحياتي لكم وبعد : فقد اطلعت في عددكم الاغر من المقتطف على مقال «للاستاذ نقولا الحداد» تحت «آخر كلمة» وهي تختص بالرد على بعض النقاد في موضوع الذرة . وكان مما لفت نظري ما جاء في آخر المقال اذ يرد الاستاذ نقولا على الاستاذ جبران بأن الكالوري هو كمية الحرارة اللازمة لرفع جرام من الماء درجة ١° م (وأحياناً لرفع كيلو جرام) وذلك حسب القاموس والاستاذ جبران يعتقد أن الكالوري هو كمية الحرارة اللازمة لرفع كيلو جرام ماء .

وإني أجد أن كلا الاستاذين المحترمين قد وقعا في لبس يقع فيه كثير . وقد آثرت أن أرسل هذه الفقرة لتصحيح هذا اللبس العلمي . وأرجو نشرها حتى يطلع عليها كل من أراد وهي :

« الكالوري الصغير Calorie ويكتب بحرف c صغير small : هو كمية الحرارة اللازمة لرفع درجة حرارة جرام واحد من الماء من ١٥° م الى ١٦° م وأما الكالوري الكبير ويكتب بحرف كبير Calorie - C capital letter يساوي ١٠٠٠ كالوري صغير أي ما يلزم لرفع درجة حرارة كيلو جرام واحد من الماء من ١٥° م الى ١٦° م » .

وختاماً تقبلوا احترامي لشخصكم العظيم .

عباس مهدي

نهائي طب — القصر العيني

الى النيل

حنانك يا قبلة الشاعر ... ومن مجده لنا غابر
إلى أين تمضي ؟ ومن أين جئت ... وحتام تنساب كالطائر !
أليس لسعيك من غاية ... أما لمسيرك من آخر
رويدك ! ما الكد مر الرسول ... وما العيش وقف على الساهر
فلو كان في السعي نيل الخلود ... لما مات ذو قدم سائر
علوت الجبال ، قطعت القفار ... وجبت رباً العوالم الدائر
فماذا جنيت سوى وحشة ... تلوح على موجك الماكر !!

* * *

تمر على بلقع موحش ... بغير من الشجر الناضر
وتنساب بين رياض حسان ... تزينُ بالسندس الزاهر
وحيناً تفيض على القاطنين ... بخير كثير الغنى وافر
وحيناً تغيض فلا تهتدي ... الى النذر من مائك الغائر
فهل ضايقتك شئون الحياة ... فضقت بتدبيرها الخاسر !
حياة تذل الأبيَّ الكريم ... وتسعد كل غبي فاجر
تبيعك إن أنت ناصرتها ... ولكن إذا بعتها تشتري
وتضحك كالطير بين الرياض ... وتخدع كالثعلب الماكر !
وتبسم كالزهر عند الشروق ... وتلدغ كالعقرب الناشر
وتشرق حيناً كنور الضحى ... وحيناً .. كليل الدجى الحاكر
وليس بها غير طيف سراب ... قليل الغنا للفتا سائر

* * *

أيضنيك هذا الرحيل الطويل ... وضربك في القفر والسامر
تعالَ فإني بلوت الحياة وقاسيت من حكمها الجائر
رماني الزمان ولكن خضعت ... لحكم من القدر القادر
فما غاب الدهر كالمستكين ... ولا قهر الكون كالصابر
وهبّا نسيرُ في فياق الحياة ... ونسبحُ في بحرها الزاخر
فيقذفنا الدهر حيث يشاء ... وما من ممين ولا ناصر

كلية الطب
بالباسية

عفيفي محمود عفيفي

صحافتنا تنحدر

بالأمس خرج الاستاذ فؤاد صرّوف من ميدان العمل العلمي ، ميدان الخلق والحقيقة ، وطلق ميدان الأدب والفلسفة الى ميدان آخر ، هو ميدان صحيفة أمريكية تعمل للناحية التجارية ، وتبعه في ذلك محمود شاكر الاديب المعروف مؤلف كتاب المتنبي ، وهو بحث قد أكبّ عليه صديقنا الاديب فألبسه من أدبه وفكره حلة قشيبة زادت الى ثروة الأدب زيادة تذكر ، ترك هذا الميدان الى الميدان الأمريكي ، ميدان الدببة التي تدخل للفنادق ، وتربية الاسماك في البرك والمستنقعات ، وقصص البحر وما أدراك ما البحر ، والطائرات الساقطة والصواريخ المنقضة . فكان خروج ذاك العالم وهذا الأديب من ميدان العمل الجدي إنتكاساً لحركة العلم وحركة الأدب في مصر والشرق .

ورأينا كبار كتّابنا مثل صديقي احمد أمين بك وصديقي الاستاذ عباس محمود العقاد وغيرهما من كبار الكتّاب والمؤلفين ينزلون عن عليائهم وعن السماوات التي تحلّق فيها أفكارهم ، وقد بلغوا من النضج العقلي ودرجوا الى منازل الحكمة العالية ، بعد صبر طويل وتجربة مع الزمن واحداث الزمن ، ينفقون من وقتهم الثمين العزيز على العلم وعلى الأدب ، ليسطروا ما يوافق مزاج الجمهور في صحف لا تمت الى العلم بسبب ولا تتصل بالأدب ولا ترتبط بالفلسفة أو الدين بأوهى رباط . إذن فالصحافة التجارية تنحدر وتحاول أن تجذب إليها عظماء الكتّاب والمفكرين ، تتخذ من أسمائهم التي ينوها بأعمالهم وعصارات قلوبهم ودمائهم الزكية وأعمارهم الطويلة بإذن الله ، سبيلاً الى كسب مادّي من طريق إرضاء الجماهير الجاهلة السابحة في ظلمات الشهوات الخسيسة والنزوات القذرة ، والإنعراف عما هو خيرٌ الى ما هو شرٌّ ، وبئس للظالمين بدلاً .

ورأينا أستاذاً عالماً كبيراً هو صديقنا الأستاذ أحمد زكي بك الكيميائي المعروف يتولى تحرير مجلة الهلال بعد أن انحدرت من عليائه المرحوم جورجي زيدان الى مستوى

الصحافة الأمريكية الرخيصة ، صحافة الجماهير وما الى الجماهير ، وقد نرى الى جانب هذا أن صحور العلم والأدب ، تلك الصخور الصلدة التي مثلتها الصحافة الجدية في ما مضى من الزمن ، وقد دكها أمثال صروف وجورجي زيدان وأحمد لطفي السيد والمنفلوطي وعبي يوسف ومصطفى كامل وفريد وجدي أنطون وسركيس وشميل وغيرهم ، وقد أخذت تتحات وتتفصل جزئياً لتصير رمالاً تذريها الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدراً .

ظاهرة من الظاهرات التي تقض مضاجع الذين يؤمنون في الأمم خيراً ، ويودون لو أن جماهير هذه الأمم تخرج من جهالاتها إلى رحاب العلم وميادين الأدب والفلسفة ، لا ان تخرج من جهلها الى ميادين الروح الامريكية التي غزت أسواق الأدب في مصر . وغزت بقية الشرق من طريق مصر .

أستغفر الله . أقول الروح الأمريكية تخصيصاً لا اطلاقاً . وإذا قلت الروح الأمريكية فاني أعني بها الروح الهفافة المائعة التي تعمل في تلك البلاد إلى جانب الصناعة والفن والأدب العالي والفلسفة الثابتة وإلى جانب القوة وقبلة القوة ، لا الى جانب الجهل المطبق والأدب الرخيص ، فتزيدنا جهلاً ، وتروج لما رخص من الأدب على ما في أدبنا من رخص وتفاهة وتصرفنا إلى الهزل دون الجد ، وإلى الحكاية دون الأدب ، والى القشور دون العلم بل الى الهاوية التي تحفرها هذه الصحافة تحت أقدام الأمم العربية جميعاً .

يقول المتجرون بالأدب والعلم والفلسفة : إن الجماهير تطلب ذلك . آمنّا معكم وصدّقنا أن الجماهير تطلب هذه الألوان الرخيصة . ولكن أين نفوسكم وأين ثقافتكم وأين رسالتكم التي تؤدونها لهذا الجيل وللأجيال المقبلة ؟ آمنّا وصدقنا أن الجماهير لا ترتفع لأكثر مما تعطونها من مادة ، آمنّا وصدقنا أنّ الجماهير قد تطلب ما هو أرخص مما تعطون في صحفكم ، ولكن هل بدا لكم أن الجمهور كائن أصم أبكم أعمى مجنون لا ينفع فيه التعليم ولا تفيد فيه الثقافة ، وأنه كسائمة الحيوان ان لم تجد حشيشاً تأكله ، أكلت الروث والجيف . آمنّا وصدقنا أن الجمهور في حاجة الى التعليم والارشاد ، فهل تثقفه بمقال في جدال ملك حول طربوش أو قصص في صوره ، وغير ذلك مما تنثني له النفس وتروح حسرات على الأدب والعلم وعلى الجمهور الذي لا يجد إلاّ ما تأكل السائمة من الحيوان إذا افتقدت غذاءها الطبيعي فلم تجده ؟

ولعلك تنظر في مجلة كالهلال في عهدها الجديد ، وهي المجلة الثقافية التي أنفق فيها

منشؤها الأول المرحوم أستاذنا جرجي زيدان ما أنفق من جهد وقوة وعنفوان وعلم وأدب وقصص ، فترى مقالاً كتبه طبيب من أطبائنا المعروفين تحت عنوان يضحك الثكلى. أتدري ما هو ؟ أنظر صفحة ١٤٣ من العدد الأول « في الثوب الجديد » الذي شعاره « الى الأمام » تجد رؤوساً كبيراً وبلغط العريض « الجسم السليم في الأنف السليم » أليس هذا بمثابة قولك « الفيل الكبير في الخرطوم الصغير » أو قولك « الحية العظيمة في الناب الثمين » أو قولك « العقرب الكبير في الحمة القميئة » . أرأيت في عمرك الطويل أو القصير مثل هذا الاحتقار لعقول الناس ، أو على حد قول تجار الادب « غش الجمهور » . أرأيت جسماً في أنف أو فيلاً في خرطوم أو حيّة في ناب أو عقرباً في حمة ؟ أرأيت كبيراً يتضمنه صغير ؟ أرأيت كُلاً يتضمنه جزء ؟ إن لم تكن قد رأيت فانظر في العدد الأخير من الهلال تر المعجزة التي لم يدّعها نبي من الأنبياء ولا دعيّ من الأدعياء.

كل هذا ينشر للجمهور ، ومن هو هذا الجمهور ؟ هو جملة المتعلمين في جامعة فؤاد وجامعة فاروق والجامعة الأزهرية والمعاهد الثانوية والمدارس الاخرى مضافاً إليهم قلة لا يعتد بها من الذين لا يحسنون القراءة . هذا هو الجمهور الواطئ الأصم الذي يتجر هؤلاء بصحافته العلمية والأدبية ، ويملؤون من ماله جيوبهم ، ثم يرمونه بالغفلة ضاحكين ، وكل هذا ينشر باسم عالم من علمائنا وفذ من أفذاذنا ، ولا حول للأدب ولا العلم ولا للفن الرفيع أمام سلطان المال في زمان طغت فيه المادية على كل شيء حتى على الروح .

لست أدري بأي ضمير يحاول هؤلاء المتجرون بالأدب أن يحملوا الجمهور مسئوليتهم أوزارهم كاملة . يقولون إن الجمهور جاهل منصرف عن الجد إلى اللهو ، متطير من العلم كاره للأدب . كل هذا ليبرّروا أساليبهم الملتوية ويخفوا أغراضهم الكريهة .

تاجروا بالصحافة ، واتخذوا الاتجار بها مهنة . ولكن لا تتجروا بالأدب . ولا تتداولوا العلم تداول السلع الرخيصة ، ولا تموهوا على الفلسفة واقصروا عن إغراء الكتّاب بالمال ليكونوا لتجارتكم سبباً . بل اجعلوا من أموالكم حقاً معلوماً لهؤلاء الأفذاذ ليعالجوا الى جانب تجارتكم مستغلق العلم وعميق الفلسفة ورفيع الأدب ، عسى أن تعتقوا على ما تتمادون من تجارة شيئاً من الاعتبار ، وتؤدوا لهذه الجماهير التي تتهمونها

بالغفلة والجهل، وترصونها بأن نفيسة، خفية أو ظاهرة، بعض الواجب حراء ما تصبر على الكيد لها والنيل منها، وامداد نفوسها واثارة الشهوات الخسيسة في ميولها.

لقد انحدرت صحافتنا حتى كادت تكون حضيضاً. ولا مخرج لنا من هذا إلاَّ بأن تحتقر هذه التجارة وتفيد ويترفع عن المساهمة فيها كبار كتابنا وعلمائنا، إلاَّ أن يكون لهم من صفحاتها مجال تسبح فيه ملكاتهم الخصبة، ويجد فيها أدبهم الرفيع وثقافتهم الممتازة مرتعاً رحيباً ومطمأناً إلى حين.

ا : م

واجعل خيالك واقعاً أو مت عنا ...

يا قلبُ فيمَ الحبُّ أو فيمَ المنى ؟ والحبُّ كالعنقاء، لا هي أو أنا

أما المنى من غير حبٍّ في الفتى هِيَ باطلٌ لا خيرَ فيها أو عَنا

عجباً أتتبعُ الخيال وتبتغي فيه دنيَّ لكَ إذ تصدّ من الدُّنى ؟

متوثبٌ ؟ والساق جدُّ ضعيفةٍ أم طائرٌ ؟ والجنحُ مطويٌّ ثنى

فلأنت كالباني قصوراً في الهوا والقبرُ شيِّدَ في الثرى لمن بنى

فدعِ الخيالَ اذا توقف عاجزاً متلفتاً، فهو الخرافةُ والضُّنى

أو إنْ تكنْ رجلاً تحققْ منيةً واجعلْ خيالكَ واقعاً أو متْ عنا

بغداد — أديب —

واجب الشاب العربي

يعيش الشاب العربي اليوم في عالم تتسابق أممه ، وتتنافس شعوبه ، وتتعارك دوله أشد العراك في أكثر الأحيان ، وكل أمة من هذه الأمم تبذل ما في وسعها ، وتقدم كل ما تُطيقه في سبيل تكوين جيل جديد من بنيها وفتيانها ، يكون عدة الحاضر وأمل المستقبل والمعتصم عند النوازل ، والملجأ لدى الكوارث . . والأمة العربية الكريمة التي حملت أرفع الرسالات ، وأدّت للإنسانية أكبر الأمانات ، وأذاعت بين الناس أجمل المبادىء ، ودعت بين العالمين بأحسن الدعوات ، دعوات السماء والنور ، والروح والأخلاق ، وتلتفتُ وراءها فترى لها في ماضيها تاريخاً مجيداً تليداً ، كله المفاخر والمآثر ، وتتطلع الى الغد القريب أو البعيد فيدفعها الأمل ويمدوها الرجاء ؟ هذه الأمة العظيمة الكريمة المجيدة تحتاج في نهضتها الحاضرة التي نشاهد براعمها وبراكيرها ، جيلاً جديداً ، قويّاً في جسمه ، ناضجاً في عقله ، نبيلاً في خلقه ، فما هو واجب الشاب العربي في هذا الميدان ، حتى يكون شبلاً قويّاً فتيّاً من أشبال ذلك الجيل الجديد ؟! . .

أمام الشاب العربي واجبات كثيرة وتبعات جمّة ، لا بدّ له من أن يعنى بها ويلتفت إليها ويحبس نفسه عليها ، ولا نستطيع في مجال محدود كهذا المجال أن نفصل أو نحلل ، أو نحصي ونستقصي ، فحسبنا إذن أن نطوف بعناوين واجبات ورءوس مسائل ندع جزئياتها والحديث عن تفاصيلها لأهمية ذلك الشاب العربي الذي تكفيه الإشارة وتغنيه عن العبارة !!

يحتاج الشاب العربي في هذا العصر الناهض المتنافس أهله وأبناؤه أن يدرس جغرافية وطنه الأصغر ، وهو مسقط رأسه ودولته التي نشأ فيها وتحت حكمها يعيش ، وجغرافية وطنه الأكبر ، وهو سائر الأقطار العربية الشقيقة ، وكذلك تاريخ وطنيه الصغير والكبير ، فإنه من المؤسف المؤلم أن نرى الكثرة الغالبة من شباب العرب هنا وهناك لا يعرفون من تاريخ بلادهم أو جغرافيتها إلاّ النذر اليسير ، ولعلّ شباب مصر في جهلهم بتاريخ الأقطار

العربية وجغرافيتها أكثر من غيرهم وأصدق، لأصاب كثيرة بين هذا موطن عرضها، وسائل إن أردت التأكد من هذا شابًّا مصريًّا عن مواضع الأقطار العربية أو مدنها الكبرى أو تاريخ جغرافيتها أو ماضي تاريخها، فإنه لن يجيبك جوابًا، ولن يرد بما تبغيه علمًا

ولقد تسأله عن أقطار أوربا وأمريكا فيحدثك عنها حديث العارف بدقائقها قبل جلائلها ويعرد لك أسماء الكتب التي قرأها عن تلك الأقطار وأممها بلادها وزراعتها فليس شاب عنده حساب!

والشاب العربي لا بدَّ له من أن يعرف الآلام السياسية والاجتماعية والمادية التي يشكو منها كل عربي أو مسلم، فإن الشعور بالنقص أول درجات الكمال كما يقولون، ولقد كان لك أيها الشاب العربي في الزمن الماضي وطن عزيز، وتاريخ كريم، وآباء وأجداد قادوا وسادوا ثم جرت الأحداث والنكبات على أخلافهم فذلوا وهانوا، وحسبك أن تسمع في ذلك أنة الشاعر العربي إذ يصوِّر ذلة الوطن العربي بعد عزته، وضعفه بعد قوته، ونزوله بعد ارتفاعه فيقول:

مالي وللنجم؟ يرعاني وأرعاه! أمسى كلانا يعاف الغمض جفناه!
لا تحسبني عبثًا يشكي وصبًا أهون بما في سبيل الحب ألقاه
إني تذكرت، والذكرى مؤرِّقة مجدًا تليدًا بأيدينا أضعناه
أنَّى اتجهت إلى الإسلام في بلدٍ تجده كالطير مقصوصًا جناحاه
ويح العروبة: كان الكون مسرحها فأصبحت تتوارى في زواياه!
كم صرَّفتنا يدٌ كنَّا نصرِّفها! ويا يملكنا شعبٌ ملكناه!!

وها هو ذا شاعر العرب والإسلام، أمير الشعراء المغفور له أحمد شوقي بك، يهنئ المغفور له الخديوي عباس حلمي الثاني بخروجه الى الحج في قصيد طويل رائع، يختمه بأبيات هي أنات وزفرات وحسرات على حاضر الشرق للعربي الاسلامي، وفيها دعاء صارخ وأمل حارٌّ ورجاء قوي في أن يدفع الله عن العروبة هذا البلاء، وأن يحرض أهلها ويوفقهم لكي يعملوا كما عمل سواهم في ميادين العلم والصناعة والحضارة، فيستردوا مجدهم وماضيهم الزاهر الناضر، فيقول مخاطبًا الخديوي عباس:

إذا زرت يا مولاي قبر محمدٍ وقبَّلت مثوى الأعظم العطرات
وفاضت من العين الدموع مهابة لأحد بين السفر والحجرات

وأشرق نورٌ تحت كل ثنيـــة وضاع أريج تحت كل حصاة [١]
لمظهر دين الله فوق تنوفة وباني صروح المجد فوق فلاة [٢]
فقل لرسول الله ياخير مرسل أبنك ما تدري من الخبرات
شعوبك في شرق البلاد وغربها كأصحاب كهف في عميق سبات
بأيمانهم نوران : ذكرٌ وسنةٌ فما بالهم لا يعـــملون لآت ؟
وهـذا زمان أرضه وسماؤه مجال لمقـدام كبير حيـاة
مشى فيه قومٌ في السماء وأنشأوا بوارج كالأبراج متنحـــات
فقل : رب وفّق للعظائم أمتي وزيّن لها الأفعال والعزمات [٣]

هذه صرخات أوحى بها ما أصاب أقطار العروبة من آلام ونكبات ، ومن المؤلم أن تكون هـذه النكبات بعيدة عن قلوب الشاب العربي ، ولو أنهم أدركوها وأحاطوا بها لدفعتهم الى تغيير ما هم فيه من ذل وخسران ...

وكذلك يجب على الشاب العربي أن يعرف الآمال التي يأملها وطنه ويرجوها في حاضره ومستقبله ، فإن الإنسان الذي لا يحس بأمله لا يمكن أن يبرأ منه ، والشخص الذي لا يدري ما تحتاجه صحته وسلامتـه يكون عرضة للآفات والنوازل ، فاذا أهمل وفرّط ثم ابتلي وأصيب ، فلا يلومنّ إلاّ نفسه ، وما أصدق ذلك الذي قال :

لا تعجبوا للظلم يغشى أمة فتنوء منه بفادح الأثقال
ظلم الرعية كالعقاب لجهلها ألم المريض عقوبة الاهمال !

وهذا الخاطر السابق يسير بنا إلى خاطر آخر يتصل بهذا الموضوع ، هو أنه يجب على الشاب العربي أن يحصل في هذا العصر على أكبر قدر ممكن من العلم والمعرفة والثقافة ، لأننا في عصر لا تتنافس فيه الأمم بأجسامها أو سعة أراضيها أو كثرة عددها أو انفساح مداها ، بل نحن في عصر العلم والفكر ، في عصر الكتاب والمعهد ، في عصر المذياع والبرق والبارجة والمدرّعة وحاملة الطائرات والقنبلة الذرية وتحطيم الذرة ، في عصر الوصول الى أدق ما في الكون من أسرار ، في عصر استخدام الهواء والماء والسماء وجوف الأرض ،

(١) الثنية : طريق الشعب ، وضاع : فاح . (٢) تنوفة صحراء واسعة . (٣) هذا أحسن ما يهدى إلى الذين يهاجمون كتاب « هدي هي الاطلال » — المحرر

وهذا كله لم يتيسر إلا بالعلم والفكر والثقافة التي نتجت روائع العقل البشري وعبقريات الفكر الإنساني ، وما من أمة اليوم تستطيع أن تشارك في الأمور الدولية ، أو تساير ركب الحياة العالمي إلا إذا كان لها نصيب موفور من الثقافة والعلم ، ونظرة واحدة إلى تاريخ بلادك أيها الشاب العربي تدلك على صحة ما أقول ، فهؤلاء هم أجدادك العرب ، كانوا بالأمس البعيد يعيشون فوق رمال الصحراء عيشة بدوية ساذجة ، لا يدرون عما في العالم من نظم أو حياة ، ولا يخرجون عن دائرة جزيرتهم الجرداء ، ثم انبعث فيهم ذلك النور القوي الساطع الذي حمل مشكاته محمد العظيم نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام ، فأخرجهم بشريعته من الظلمات الى النور ، وفتح بحفنة منهم مشارق الأرض ومغاربها ، وأخذ سلطان العرب ينبسط وينبسط حتى أصبح في الدولة العباسية ملكاً كملك بني التاميز اليوم لا تغيب عنه الشمس ولا يحده الخيال ، وما قامت عظمة هذه الدولة العباسية إلا على العلم والفكر والثقافة ، فقد وقف الخلفاء والأمراء من بني العباس جهودهم وأوقاتهم وأموالهم على الترجمة والتأليف والتجديد في علوم العقل والنقل ، وزخرت دور الكتب والحكمة بروائع العقل الإسلامي ، سواء أكانت هذه الروائع من إنتاجه الخالص أم من ترجمته وهضمه وتهذيبه . ولما سكتت ريح هذه النهضة العلمية العظيمة أخذ الضعف يدب في جسم الدولة الاسلامية ، وأخذ المسلمون يتبددون في أنحاء الأرض كما يتبدد الهلم الجبل !! . .

وحيما يبهرنا نور العلم وضياء المدنية ، يجب أن يكون ذلك بمقدار ، وأن يقف عند حد محدود ، فالشرق العربي الاسلامي ، مصدر النبوات ، ومنبع الرسالات ، ومبعث الدعوات الروحية ، لا يستطيع بحال من الأحوال أن يسير مع الغرب في ثقافته المادية الحسية الى نهاية الشوط ، لأننا نحن العرب نعرف شيئاً آخر له جلاله وجماله ومكانه الرفيع بجوار العلم والمادة ، ذلك الكنز الثمين هو الروح ، فإذا ما نهضت عظمة الغرب على الجسم والمعمل والمصنع والمتجر والآلة فحسب ، قامت نهضة الشرق — أو يجب أن تقوم — على مثل هذا أو بعض هذا بجوار أقباس من هدي الروح ، وأنوار من مشكاة الأخلاق ، ولذلك كان واجباً على كل شاب عربي ألا ينخدع طويلاً بهذا التراث الغربي المادي الضخم الذي قام بالمادة وللمادة وحدها ، بل عليه أن يرعى حق روحه ونفسه ، فيجعل ذاته بما ورثه من

آبائه وأجداده الغرّ الميامين من الأخلاق العالية والصفات النبيلة فيؤمن بأن الرحمة والسلام والإخاء والصدق والوفاء والإخلاص والعدل والعفو شيم وطباع حثه دينه ووطنه وتاريخه عليها ، فلا مفرّ له من التحمل بها وتطبيقها عمليًّا في جوه الفردي وفي بيئته الخاصة ما استطاع الى ذلك سبيلاً ! . . فلنأخذ من مدنية الغرب وحضارته ما استطعنا ، على أن يكون ذلك مدعماً ومطعماً بما لدينا من روحانيات وأخلاقيات بها يكون الانسان إنساناً !!

والأقطار العربية اليوم تشكو تدابر أفرادها وتقاطعهم ، فلا زيارات ولا رحلات ولا تراسل ، ولولا ما هنالك من أحداث سياسية تضطر ولاة الأمور في أقطار العروبة الى التلاقي وعقد المؤتمرات أو الاجتماعات في بعض المناسبات لكانت الشكوى من هذا التقاطع صارخة بالغة عنان السماء ! ! ... وهم يقولون فيما يقولون حينما يتحدثون عن نهضة العرب إن العرب لن يستردوا عزتهم إلاّ بسبيين الاتحاد والقوة ، والقوة لا تأتي ولا تتحقق إلاّ إذا سبقها الاتحاد ، والاتحاد لا يتحقق إلاّ إذا تعارف الافراد المتحدون ، لأنهم لا يستطيعون الوحدة ما داموا متنكرين متجاهلين متقاطعين ، لذلك يحسن بالشاب العربي أن يتعارف مع أكبر عدد ممكن من اخوانه شبيبة العرب في سائر الأقطار الشقيقة ، وأن ينظم معهم المراسلات التي يشرحون فيها حاضر بلادهم وخواطر أنفسهم وخفقات قلوبهم ، وما يتطلعون إليه من مستقبل مشرق سعيد ، ولا زلت أعترف بأن أكثر المعلومات التي حصلتها عن البلاد العربية الشقيقة يرجع الفضل فيه إلى تلك الرسائل الكريمة التي كانت تصلني من إخوان كرام تعرّفت إليهم من أبناء العراق والشام والحجاز ! ! . .

كذلك لن أنسى أن أذكر بالخير تلك المجلات التي تخصص من صفحاتها جانباً لتأكيد هذا التعارف بين شباب العروبة بذكر أسماء وعناوين الأشخاص الذين يريدون التعارف في كل قطر عربي ، فهذا مجهود وطني مذكور مشكور ، وكم أتمنى أن تظهر في البلاد العربية مجلات أو مجلة على الأقل تقف جهودها على توثيق العلاقات الشخصية والأدبية بين أبناء البلاد العربية ، وذلك بنشر أسماء الراغبين في التعارف وعناوينهم وصناعاتهم ، وتنشر الى جانب ذلك أبحاثاً بأقلام هؤلاء الشباب عن أقطارهم وخواطرهم وآمالهم وآلامهم وغير ذلك ! ! . .

أنا كفيل بأن هذه المجلة إذا ظهرت تذيع وتشيع ، ويتأصل مركزها حتى تبلغ في

مسافة قليلة من الزمن مرتبة كبريات الصحف والمجلات في الشرق العربي ، وبخاصة إذا توفر لدى القائمين بها عامل الصدق والاخلاص في هذا المجهود ، فهل من متقدم إلى الميدان ؟ . .

والشاب العربي في حاجة إلى أن يدرس ما كان لاسلافه العرب الاوائل من محامد ومفاخر ، دانوا بها الزمان وحلوا بجبهاتها جيد الأيام ، وما ضمنوه صفحات التاريخ الباقي من مواثيق امتازوا بها عن سواهم وحرصوا عليها ، حتى تكون هذه المفاخر الرائعة من أقوى الحوافز للشاب العربي تحفزه إلى أن يتشبه بالذين سلفوا من آبائه ، ويسير على طريقتهم ، وينهج نهجهم ، وينسج على منوالهم ، وكذلك يجب عليه أن يدرس في الاسلام من تعاليم خلقية واجتماعية واقتصادية ، حتى ولو كان الشاب العربي غير مسلم ، فلسنا نحرضه على ترك عقيدته الدينية بطريق غير شريف ، وإنما نحب له أن يطلع على تلك الجوانب المشرقة في دين الاسلام من جهة الاخلاق والاجتماع ، والقرآن الكريم بعد هذا أو قبل هذا يقول : « لكم دينكم ولي دين » .

والاسلام إنما جاء بلغة العرب وللعرب أولاً ، وإن كان للناس كافة بعد ذلك وانتشر الاسلام بمجهود العرب ، وكذلك كسب العرب كثيراً من المفاخر بانتسابهم إلى الاسلام ، واستظلالهم بلوائه ودخولهم في دولته ، سواء أكانوا من المسلمين أم من غير المسلمين ، فالصلة على هذا وثيقة جداً بين العروبة والاسلام ، وكما يجب على المسلم أن يعتز بالعرب والعربية ، يجب على العربي أن يعتز بالاسلام وتعاليم الاسلام ، حتى يكون لنا من هذا الترابط قوة ومنعة واتحاد ! ! . .

ومن اللائق بالشاب العربي في هذا العصر المجاهد المكافح أن يجعل له ناحية في الحياة يبرز فيها ، ويبز أقرانه فيها ، فيعكف على أية هواية شريفة ، أو ناحية مفيدة ، في العلم أو الادب أو الفن أو الصناعة ، ليقصر عليها جانباً كبيراً من نشاطه ، ويستنفد فيها أوقات فراغه ، حتى يتقنها ويجيدها ويبرها ، ويصبح علماً من الاعلام فيها ، إذ لا يكفي اليوم أن يأخذ الانسان من كل فن بطرف كما كان يقول القدماء ، بل لا بد له فوق هذا من أن « يتخصص » في ناحية من النواحي ليسبق فيها غيره وسواه ، فنحن في نهضتنا الحاضرة نريد أن يكون فينا أدباء ممتازون ، وعلماء متخصصون ، ومخترعون مبتكرون ، وصناع ماهرون ، وأفذاذ في كل ناحية ، وأعلام في كل ميدان ، وهذا لا يتحقق إلا إذا وجدت روح « التخصص » عند الشاب العربي ، فأدى واجبه المعتاد في جميع المهمات الموكولة إليه ،

ثم اختص ناحية من هذه النواحي بقسط من العناية والرعاية حتى يوفى فيها على النهاية ويشرف على الغاية ، لأننا نحن العرب لا نشكو انعدام المجتمع المتوسط في علمه ومادته ، وقد يكون الجمهور عندنا في الجملة أرقى من جماهير كثيرة في نواحٍ كثيرة ، وإنما نشكو قلة العباقرة والممتازين في العلوم والفنون بيننا . وهؤلاء العباقرة هم الذين يصنعون على قلتهم تاريخ الأمم ، ويبنون مجدها ، ويبلغون بها الذروة من الحضارة والمدنية ، فما هو نوع امتيازك أيها الشاب العربي ؟ بل ما هي جهة « اختصاصك » التي برعت فيها ؟.. هل حاولت أن تكون رساماً بارعاً ، أو أديباً ممتازاً ، أو صانعاً حاذقاً ، أو موسيقياً فنّاناً ، أو خطاطاً مجيداً ، أو رياضياً قادراً ، أو شاعراً نابغاً ، أو أية ناحية من نواحي التفرد والنبوغ ؟! . . .

وكم أتمنى أن يعوّد الشاب العربي نفسه على أن يلزمها بتقديم خدمة يومية لبلاده دون أن يحتقر شيئاً في هذا السبيل ، فكم من أشياء يظنها تافهة وهي في الحقيقة والواقع تؤدي إلى خير عاجل أو آجل لبلده أو للعرب جميعاً ، فبحث عن تاريخ العرب خدمة ، ودفاع ضد متهجم عليهم خدمة ، وتصحيح خطأ في لغتهم خدمة ، وكتابة مقال عن مفاخرهم خدمة ، وظهورك بمظهر مشرف لهم في خلقك ومعاملاتك وعاداتك خدمة ، وصلوات الله وسلامه على رسول الاسلام الذي فسح ميدان الإحسان والبر ، فجعل الكلمة الطيبة تقولها لصديقك إحساناً ، والأذى تميطه عن الطريق إحساناً ، والابتسامة في وجه ملاقيك إحساناً ، وردّ السائل ردّاً حسناً إحساناً ، وغير ذلك من وجوه الاحسان ، فلا تحتقر شيئاً أيها الشاب العربي في سبيل بلادك ، فان القليل إلى القليل كثير ، وكل ما نطمع فيه هو أن توجد فيك الرغبة الصادقة الأكيدة في السير إلى الأمام ! ! . .

يا شباب العرب . . أنتم عدّة الوطن وعماده ، وركنه وسناده ، بكم يقوى ويعلو ، ويشتد ويسمو ، وأنتم الذين تكتبون تاريخه وتغيرون وجهته ، فإلى الأمام ! . .

إلى الأمام يا شبيبة العرب وكتيبة الغلب :.. إلى الأمام يا جند النصر وأهل الصدر ! ..

إلى الأمام يا حزب الرحمن وقهر قالشيطان ! .. إلى الأمام والله معكم ، ولن يتركم أعمالكم. هو ولي الصابرين ، ومثيب العاملين ، وناصر المجاهدين ، وهو نعم المولى ونعم النصير ! . .

احمد الشرباصي
المدرس بالازهر الشريف

قصة للتاريخ

— ١ —

تنفس الصبح وهي ساهرة تذكر الماضي فيطوف بها الأسى ، وترقب وجه النهار المقبل فيهتف بها الخوف . لقد كان زوجها حبيباً فشربت كأسه مُرَّةً وهو في ربيع دنياه ، وكان ولدها البكر زينةً ورجاء فثكلته بعد أبيه ، ثم كانت مشيئة الله في بصرها العالي ذكّفاً من مدّ البكاء ، وكادت نفسها تفيض لولا رحمة من السماء هاءت لها أن تعيش . . .

وأنت لو شهدت هذه المكفوفة في ليلها ذاك ، لحسبتها ظلاً لامرأة جلست على حشية فقيرة ، وقُرْبَة من نائم شاب تتحسسه مترفقة ، فتمرّ بيدها الراجفة على رأسه ، وتمرّ بها على دثاره ، وتستاف نسيمه تارةً كالشحيح الخائف على نفيس عنده ، فهو يأخذ نفسه بالتمامه ، ويأخذها بمعاودة هذا الالتماس ، وفي الأحيان المتقاربة .

كان هذا الشاب ولدها الوحيد ، أو طفلها كما تدعوه ، وإن كان قد عدّ عشرين ربيعاً ، وغداً يستأثر بقضاء الباب حين يدخل عليها ، ولعلها أخذت ، في إرادة هذا الامتداد لطفولة ابنها ، بشعور مشفق حريص ، كأن الشباب يسلبها الملك عليه ، أو كأنها تجد في الطفولة عوذةً تقي من العين .

ولكن أيّ وجه من الحياة مخوف توشك أن تستقبل إذا كان النهار ؟ ولنطلب الجواب فنرتدّ إلى الحرب العالمية الأولى يوم كان السلطان للترك ، ونعرّج على مدينة من تلكم الجانحات على شاطىء البحر الشامي ، في هذه المدينة القديمة الجميلة تقيم الأم وفتاها ، وفيها كما في غيرها من بلادنا الحبيبة كان الشباب وكان الكهول يساقون الى الجندية على عجل ، وفي شيء من العنف إن شئت نبأ الناس يومئذٍ .

وكان الفتى ابن المكفوفة هذه — وندعوه فؤاداً — من بين أولئك ، فاحتجّ بأن ليس لأمه من طائل آخر ، ولكن سجل النفوس شهد أن له أخاً ، فقيل : ليس بُدٌّ من أن يساهم

أحدهما في الذود عن حياض الدولة ، ولا مفرّ من الواجب المقدس .

قال الفتى : (نعم لقد كان لي أخ ، فعملت به المنون مهاجراً في دير الغرب منذ أعوام خلت ، وعندي على موته طائفة من البينات إن إردتموها) . ولكن المجلس العسكري المؤقر أبى أن يأخذ بقول الشاب ، فالوفاة في عرف القانون إنما تثبت بنص السجل ، والسجل هنا ليس فيه شيء مما زعم ، ثم هذه خزانة السلطان قد رفقت بأهل الخصاصة من ذوي الجنود ، فجعلت للانسان منهم كفاء ما يحرز من العوز ، عشرين قرشاً في الشهر الواحد !

حمل فؤاد هذا الى أمه ، وحمل إليها إنه من الغد صائر الى الجندية ، يستقبل عهداً لا يعرف لنفسه فيه غاية ، ولا لذات غيبه مصيراً ، ثم أردف يقول : وليس من حيلة يا أماه ! إلاّ أن أستجيب ، ولعلي أرتد إليك سالماً ، إن كُتب عليّ أن أعود .

قالت — وإلى أين هم آخذوك ؟

قال لا علم لي بهذا يا أماه ! وإنما رأيت الناس يتحدثون بأن الحرب قائمة في الشمال وفي الجنوب ، كما هي في الشرق وفي الغرب .

— ومتى تعود إليّ ؟ فاني ما زلت أذكر أخاك .

— لعلّ الله يحدث أمراً ، فلا تطول غيبتي .

— امض من عندك على بركة الله ، وسأدعو لك دائماً كما أفكر فيك ، وقد اضطر فأبيع بعض ما في البيت ، فلا يسوءنك هذا إن فعلته .

— كيف يا أماه ! ولعلي أجد ما أبعث به اليك ، فلست أعلم إلاّ أن الله رحيم كريم .

على هذا تنفس الصبح ، وهتف المؤذن : حيّ على الصلاة ، الصلاة خيرٌ من النوم ، فاذا الأم تنهض فتبرح مجلسها ذاك في شيء قليل من الحركة ، وشيء كثير من الهدوء ، حذر أن يحس طفلها النائم ، فهي إنما تحب له أن يتزوّد من الراحة ما وسعه أن يتزوّد لغده . ثم أخذت تتلمس طريقها إلى مطبخ فتاة يتيمة في البيت لا تعرف إلاّ أنها تعيش على خدمته ، فهي فيه ثالثة اثنين ، تحب الأم وتعبدها ، وتحب الفتى وتعبده على صمت وهي تعلم أنها لا تشغل شيئاً من فراغ قلبه .

ولم تكد تبلغ مرقد الفتاة حتى أحسّت بتأوهها ، وسمعتها تقول : (فتلفتي بهت قبلك

يا أمّاه !) وكان هـذا النداء محبباً إليهما جميعاً ، يعذب على لسان الفتاة فتتعمده أحياناً ، ويعذب في أذن الأم فهي تجد عليه من الاخلاص الحنون حلاوة ، وتتخيل شيء من العزاء ، لو كان قلب الثاكل المفجوع من سبيل إليه .

وتسعى الفتاة فتأخذ بيد السيدة ، فتحس هذه دمعاً يتساقط ، فتنفرج لها ذراعاها وتروح تضمها ما وسعها أن تفعل ، كأنما هي تريد أن تعانق بين الجوانح لهيباً ، أو أن تخمد ثائرة ، أو أن تترجم عن شيء يجيش به الخاطر فتقول : (أنت ما أبقى لي الزمان) ، ولكن العصفيرة على صدر الأم هنيهةً ، ثم تتخلص مترفقة فتنطلق تهيء لها وضوءها ومصلاّها وللفتى ما أوصى للصغر من متاع .

وتأخذ السيدة في صلاتها ، ثم في الابتهال الى الله تلتمس لقلبها الصبر ، ولولدها العون فيما يستقبلان من عمّ هذه الغربة الدانية . وتشهد الفتاة هذا الابتهال . فإذا هي تهزّ على سحر الخشوع ، فيقوم في روعها أن تنهض تتصلى ، وتعجل فتأخذ في وضوئها ، ثم تستقبل السماء تدعو للفتى كما تفعل أمه .

وما كاد وجه النهار يشرق حتى كان فؤاد قد استفاق فنهض يتهيأ لما هو مقبل عليه ، وإذ تم له ما أراد سعى الى أمه ، فطال بينهما العناق وطال البكاء ، والفتاة آخذة بنصيبها من الحزن واللوعة جميعاً ، حتى ومن الشوق فهي لا تعرف من قلبها إلاّ هذا الحنين الى فؤاد .

وتشفق الأم على ولدها فتخلي عنه ، فيلتفت فاذا الفتاة تهمّ به ، فيتلقى الحنان البريء المخجول مودعاً ، ثم يمضي وينغلق باب البيت . . .

* * *

— ٢ —

لو كان الذي طاف بهؤلاء الناس حظّاً من الغنى ، أو كان جاهاً من المجد لآحسه الجيرة بل وأهل البلد ، ولسامحوا فيه قليلاً أو كثيراً ، ولكنه كان شقاء فما فطن له واحد من المحسنين ، ثم مرّ الزمان ينفق من أيامه ولياليه ، فمضى عامان أو أكثر قليلاً ، وكنا

لا تعرف من نبأ فؤاد شيئاً ، حتى أقبلت رسالة منه ذات يوم على صديق تقول :

عزيزي كمال :

كان من حقك عليّ أن أكتب إليك منذ حين لأصل عهد الشهود بعهد الغياب ، فنعود نحيا على أحلام المجد العربي ، ولكن هذه الجندية ظلت تطوّف بي حتى هذا البلد الذي أكتب منه ،

وبعد فما أريد أن أحدثك حديثي ، ولا أن أسألك ما فعل الزمان بأبي فهدان ما لست استأثر لها بوقتك كلاّ ، ولا أريد أن أقص عليك مناعب الجندي العربي في هذه الحرب ، أو أن أصف لك عبث أعوان هذه الحكومة بالحرمات والحقوق والأرواح جميعاً ، وهذا ما لا ينقصك علم طائفة منه . فقد كثر ما تحدثنا به أيام عهدنا القريب .

وإنما أريد أن أتحدث إليك بحديث تجربة عربية في هذا البلد العربي ، وقد كان يسعدني أن أجمّلها بالعطر والنور ، فلا أشقيك بها ، ولكنا — يا صديقي — في حاجة الى العبرة والعبرة المرجعة ، أكثر منا الى العيش على الأذواق الصادرة .

إن حياة العبودية في كنف الإستعمار لشيء شيء حقّاً ، ولكن الأسوأ منه أن تفتح عينيك فاذا أنت عند قومك أمام انحطاط في الروح عن مرتقى الشعب السيد .

وأهدف الى غرض الحديث فأعلمك أني غشوت هذه المدينة تاماً اضابط تركي ، ولم يطل الوقت كثيراً حتى كنت أغا ودّ لنفر من الشباب وجدتهم قد أخذوا يأخذنا من هذا الحلم بالسلطان العربي ، ورأيت الناس على طرب واستبشار بحاكم جديد ، ليس لأنه العربي الفرد بين حكام المقاطعات ، فالحكام من العرب — وأنت تعلم — غير قليلين ، وإنما كان الطرب والإستبشار هذان لأن الرجل من العربية في مُحاصصها ، ومن الوعي القومي فوق قمة الجبل .

وراحت صلاة هذا الحاكم تذيع تقواه ، وإن كانت في مثل صلاة الخائف وحديثه يذيع صلاحه ، وإن كان فيه بقية من روح عبد الحميد ، وراح أهل البلد يرون فيه رمزاً للحُلم الضخم ، وينعتون إليه في إعجاب المفتون ، فهو عبقري في السياسة ، وعبقري في تعبئة الجيش وتحريكه ، وعبقري في الادارة حتى وفي الأدب والتأريخ .

وعاش الناس يحلمون ، وعاش صاحبهم يحلم معهم ، وانقضى زمن ليست المرعظة فيه انه مرّ طويلاً أو قصيراً ، وإنما هي فيما استفاق عليه الجمهور ، حين استفاق ذلك الرجل يستخف بالتبعات والقارون والعفة جميعاً ، ويترخص في مهام الحاكم النزيه .

ثم أخذ يحرّك لسانه فيرتحل المتنافسين على بابه ، ويمدّ سلطانه فيدخل بين المرء وزوجه ، ويتصل حتى بالشرطي وبالجواز ، وتتسع دمته للقروض التي لا ترد ، وللهدايا وإن بذلت في سبيل لا تذكر إلاّ همساً ، ولقدر من المال يقدمها أغنياء الحرب الأتقياء نفقةً لأسفاره في طلب المجد.

وكان من أثر هذه السيرة الصالحة ، أن استخفّ أعوان الحكومة بالتبعات ، فجاوزوا الحدود حتى لقد صارت الرشوة شيئاً لا يلتمس له الخفاء .

وترعرع على بساط هذه الاباحية الخضراء نفر من التجار الصالحين ، ولمحوا يزقون القائمين على الأمر كما يفعل الحمام بفراخه ، فصار الحكم يستغل لا لصالح الشعب بل لصالح الذاتية ، وأخذت السلع تختفي ، والأسعار تقفز ، والثروة تنحصر في أيدي طائفة قليلة من الناس ، وذاب هذا العبث ، وطال به شقاء الناس في البلد ، وأنت إن قلت أفسد هؤلاء التجار أخلاق الموظفين ، قالوا : (إنها لفاسدة منذ يومها) أو قلت : فاضت دماء المستهلكين ، أين الضمير ؟ قالوا : (إنه هو إلاّ الاسم الاصطلاحي للجبن) ، وإن قلت : ألا صوت في طلب الصلاح يرتفع الى السماء ! صمتت الهمس من حولك ، وليس غير الهمس ، قد تعلم بموت الاصالة عند إنسان من الناس فلا يثيرك أو يشجيك هذا الأمر كثيراً ، ولكنك لا تملك إلاّ أن تعجب وتحزن كثيراً حين تعلم بأن هذا الانسان أفسد بلداً ، فصار التفوق فيه ؟ لا للمثل الفاضلة ولا للأخلاق ، أو للنزاهة ، بل للنفاق وللبد الطولى وللنوم على القذى .

حسبك اليوم — أيها الصديق — ما سمعت من نبأ القوم في هذا البلد ، وقد تتهيأ الفرصة فاتصل بك ، لعلك تجد فيما أكتب اليك قصة للتسلية ، أو للتاريخ إن شئت ، وسلام عليك مني.

فؤاد

* * *

— ٣ —

قال الراوي : —

وانقطعت أنباء هذا الشاب حتى انتهت الحرب وكانت الهدنة ، ورجع الجنود من فتيان بلده الى أهلهم ، فقص أحدهم بقية الحكاية فقال :

كان فؤاد موفور النصيب من هذه المعاني الآسرة تجدها عند بعض الناس فلتة ، فما تدعك إلا وقد أحدثت في نفسك حبًّا أو أحدثت لصاحبها عهداً . ورأته عند يتردد الى بيت رئيسه الضابط ، فوقعت عند نظرها اليه ، وراحت ترقبه في غدوه ورواحه ، وتتحين مرآه وتتكر فيه ، ولم تك بالغانية تريد أن تلهو بأشواق الشباب زمناً يطول أو يقصر ، ولا بالفاجلة بعد ما بينها وبين التقى ، بل لقد جاهدت جهاد المحصنات عن قلبها ينصرف نحوه ، وظل على الشوق يجرد به في عناد وإصرار .

***

ومرت الأيام فاذا هي تعزم أن تبلو الفتى من قريب ، فتمضي فيما اعتزمت وتجري الصلة بينهما على اللقاء يتكرر ، والحب العذري يذكو ويتأصل ، والأحلام ترقى على مدها وتسبح ، والحديث يرق ويصفو ويعذب ، ثم ينساق الى حلم الزواج ، فما كانت تريده ، ولا هو كان يريدها الا على الطهر والسنة ، ولكنهما يجدان هذه العقبات يضعها التقى والجاه والحسب دونهما ، فهي إبنة أولئك جميعاً ، وهو غريب غير معروف ، وأهلوها لا يسلمون بأمر ليس يجعل بهم .

ولا يقف بهما الرأي الا قليلاً ، فاذا هما يؤثران الصبر والريث الى أن تستوفي الحرب أجلها فيختفيان في بلد آخر زوجين حبيبين ، وأمتد حديث الأحلام بين هذا وفؤاد ، فكان فجًّا حيناً ، وحلواً شهيًّا حيناً ، بل فوق هذا وذاك كان علويًّا جرى مع الطهر ، وسما بالروح ، ثم انتهى كما تنتهي الآجال في هذا الوجود .

ودأبه على أن يعودا الى نجواهما في لقاء مقبل ضربت له الفتاة الجريئة موعداً ، ثم خرجت قبله من المكان حذر العيون .

ولكن القضاء كان يبتسم ، فلقد كتب على شخص ثالث أن يقف دون ما قدر للحياة السعيدة ، وكان هذا الشخص من ذوي لُحمتها ، تقدّم من قبل في طلب يدها ، فلم ترضه بعلاً لاختلاف ما بينهما في تناول الحياة ، ولم يكُ بالشيء الغريب أن يجعل من نفسه عليها عيناً . فلقد كان شابًّا شريراً ، وصاحب حيلة واقدام أوصلاه إلى سرها ، ثم إلى مكان حفرتها لصاحبها ، ثم إلى أن يستمع حديثهما من حيث لا يشعران ، وما بعدت الفتاة إلاّ قليلاً ، حتى كان قد ولج المكان على فؤاد ، فعاجله بطعنة نجلاء ، ثم أجهز عليه ، ثم حمله قطعاً ، وجاء بحقيبتين ، فوضع فيهما أعلاه وانتظر حتى أقبل الليل .

***

كان القاتل ومعه شخص آخر يحملان حملهما ذاك ، وكان الليل قد تقدم ، فباغتهما العسس يتلصصان في مشيتهما ، فأمرا بالوقوف ، ثم سئلا عما في الحقيبتين ، فما تلعثم القاتل الشرير وزعم أنهما هدية الى الحاكم ، وانما اختارها سُدفة الليل حرصاً على سمعة الرجل ، ولم يكُ بالعسس من جرأة على المزيد في السؤال .

ويمضي الرجلان من ساعتهما إلى كهف في ضاحية المدينة ، فيلقيان فيه بأشلاء الذبيح ، ويرجعان كأن لم يكن من الأمر شيء .

وتفقد الجيش فؤاداً فما وجد له أثر ، وتفقدته الفتاة فما علمت شيئاً ، وتفقدته والدته منذ انقطعت أخباره ، فما استطاعت أن تعرف اليقين من أمره .

***

واختتم المحدث كلامه فقال —

لم يكن قد مضى من الزمان غير عهد قريب حين فتح الكهف لغرض التنقيب عن الآثار فعثر فيه على عظام هي عظام صاحبنا الفتى الذبيح ، ولكن الموظف الخبير زعم أنها لانسان عاش في العصر الحجري المتأخر .

عمان — شرق الاردن — شكري سعيد باشا

كيف نعيش مائة عام

تلك أمانيهم . الناس جميعاً لسرك كلفون، بالحياة . تمنوا أن تطول ما وسعها أن تطول، ولو شابها النصب والوصب، وعمها الأذى والكدر، حتى لقد تمنوا الخلود ، فلما أعجزهم نيله على الأرض ، راحوا يطلبونه في حياة أخرى .

وقد بحثت الجمعية الطبية البريطانية أمر المعمّرين . فخرجت من نتائج بحوثها بأن قصار القامة أطول أعماراً من متوسطيها وطوالها ، وان المتوسطين وزناً ، أو دونهم ، هم كذلك أحظى بطول العمر من الزائدين وزناً .

على أنه إذا كانت هذه الحقائق العلمية لا مطعن فيها ، فما هي بالقانون المطلق ، ولا السنة العامة ، فان لطبيعة الأشخاص ، ونظرة أمزجتهم ، تأثيراً كبيراً في طول أعمارهم أو قصرها . ذلك انه من المقررات الفسيولوجية ، والتحقيقات العلمية ، ان الذين يعيشون عيش الارهاق ، دأبهم العجلة ، والوثبة ، يحملون أنفسهم على الجهد ، والعنت ، والاسراف في كل عمل ومأتى وحركة ، لا يعمرون . ذلك لأن الحركة العنيفة ، والشعور المتوقد الثائر ، والعاطفة المسرفة ، كل أولئك باعث على افلات كياويات معلومة في البدن ، تلج الدم فتوقد جذوته ، فتتضاعف دقات القلب ، وتؤذى جدر الشرايين ، فيشتد ضغط الدم ، فتسوء الحال . وكلما تكرر ذلك العنف والاسراف ، جلّ الخطب ، وضاق بساط العمر ، وقرض الانفراط من أطراف الحياة .

كما ان للطعام وزناً كبيراً ، وشأناً خطيراً في جولة الحياة ودولة أطوارها ، وما تنعم به من العافية والسلامة ، أو تبلى به من علة وضاعة ، وحُسنها من امتداد الأجل ، أو غرمها من قصره ، إذ أن حموضة الدم من جالبات الأمراض ، ومقصرات الأعمار . وما تستوطن الحموضة مراتع الدم إلا من تناولنا أطعمة غير صالحة ، أو يكون من طبيعتها توليد الحموضة والأطعمة القلوية مضادة لهذه المضرة ، وفي رأسها الليمون . وقد قال طبيب انجليزي مشهور غاب عنا اسمه :

«إذا أكلت كل يوم ليمونة أو ثلاثة ، عند ما تكون ناضجة ، عشت طويلاً ، وحظيت بصحة جيدة » .

فليكن غذاؤك سهل الهضم ، قليل المقدار ، كثير الأملاح المعدنية والفيتامين ، وهذا ما يتوفر لك غاية التوفر في فج الخضر والفواكه . ولا تنسَ أن تجمع الى هذا نفساً راضية ، وألاَّ تغمها بالهمّ والكدر .

وقد كنا قرأنا في تلغرافات الصحف عام ١٩٣٠ أن عالماً ألمانيًّا اكتشف طريقة لاطالة العمر إلى السبعين بعد المائة ، مدارها على أكل الأطعمة النباتية غير المطبوخة .

وذكروا أن أهل باريس في القرون الوسطى لهجوا بمنقعة اكسير كان قد صنعه رجل يدعى فيلار ، رغم أنه أخذ سرّ تركيبه عن عمه الذي مات عن أرذل العمر . فمن تعاطاه ، بلغ سنًّا ، وامتدَّ أجلاً ، حتى يسأم الحياة .

وكان يبيع الزجاجة الواحدة بستة ريالات ، وتوافد عليه الناس من كل حدب ينسلون ، يلتقون الزجاجات في لهفة الواله المشتاق ، حتى أثرى الرجل وكان من المترفين . قيل وزين لاحد الكيماويين أن يكشف دخين هذا الشراب ، فما زاد ، إذ حلله ، أن علم أنه ماء صرف من نهر السين في فرنسا قد خولط بقليل خل وحبات من ملح البارود ، وكان الناس ، مع هذا ، إذا تناولوا اكسير السيد فيلار ، تطول أعمارهم حقًّا ، لا لاكسيره في ذاته ، ولكن لما نقل عنه ، إنه كان يوصي المتعاطين اكسيره ، بلزوم الاعتدال في المطعم والمشرب .

* * *

وبعد فقد اطلعنا على مقال تفيس في موضوعنا هذا ، طلبة النفوس وخلاصة الأذهان ، بقلم الكاتب الفرنسي المعروف ، أميل هيريو ، في جريدة (الطان) الفرنسية ، فاستحلصنا نقله لقراء (المقتطف) الأفاضل ، فان فيه فائدة ، وان فيه تفكهة . قال :

« مما يبعث على السآمة . وكراهة بلوغ المائة ، في من أشرفوا على هذه السن ، هو تشابه السؤال ورغبة الاستطلاع ، من كل من يلقاهم من الناس . فما ترى السائلين إلاَّ يسألونهم سؤالاً واحداً لا تبديل فيه ولا تعديل : « كيف يا هذا ، صنعت ، حتى بلغت المائة ؟ » .

تشابه السؤال ، واختلف الجواب . فأخو مائة يجيب : « ما أقلعت يوماً عن التدخين ،

والخمرة ، وأكل اللحوم الحمراء ، مسلخ الجهنمي . » وأخو مئة غيره يقول : « ما شربت قط غير الماء القراح ، ولا ذقت إلا الفاكهة خالصة » . ألا فليهنأ أولئك المسان الذين استطاعوا أن يتمرغوا ما أصابوا من حظ وتوفيق الى ذات فطنتهم ، وما أوتوا من حكمة ! ولو أن كل المعمرين مدرسة ، فما أظنها تكون واحدة ، ما دامت الوسائل متعددة .

وبعد . فهل من المستحب بلوغ المائة ؟ انك لتجد كثيراً من الناس ، إذا خالجتهم هذه الفكرة ، أوجسوا منها خيفة ، ما أراهم ، لعمري ، إلا حرموا نعمة الخيال . فهم لا يتفقهون إلا الحاضر ، ولا يقيمون وزناً إلا ليومهم الذي يعيشون فيه ، ولا مهنأ عندهم إلا فيما ملأه الحياة الناشطة الجاهدة الفتية ، الناهضة الجناح ، ولا يستطيعون أن يجدوا أنفسهم قد استحالوا ، وأصارهم كر الليالي الى غير ما كانوا عليه . وبخلاف ذلك ترى الذين بلغوا المائة هانئين بما عمروا ، ولا أشهى عندهم من دوام العيش وطول البقاء ، ويستغرق عجبك ما هم فيه من التفاؤل والاستبشار ، وإن كان هذا ، مع ذلك لا يستغرب ولا يستطرق على العقول ، إذ أنهم لقرط ما عاينوا وشاهدوا ، لا يكترثون إلا قليلاً بما يسوؤهم ، أو بما اعوج من أمور الدنيا ، وساء من سلوك الناس ، وبما يؤثر في من هم في غضاضة الشباب ، من الذين هم أقل منهم فتوراً وتبلداً .

ليت كان بيدي الآن إحصاء للمنتحرين ، فلستعلن إذاً أن الزاهدين في الدنيا المستقلين الحياة هم في الفتيان أكثر عدداً منهم في الشيوخ ، ولعلهم إنما تطاولت أعمارهم وتعبثوا بحبال الحياة ، لأنهم ولدتهم أمهاتهم متفائلين .

أما كون التفاؤل والاستبشار شوطاً لازماً لطول العمر ، فما ذاك ببدع . تلك حقيقة أكل الدهر عليها وشرب ، ولكنك على كل حال ، تقر عينك أن تعلم أن تلك الحقيقة قد تجلت مستندة ، مدعومة بالبراهين العلمية في كتاب صنفه الدكتور جورج لاكوفسكي ، يرد فيه طول العمر الى أربعة مسبب : أولها وجوب إرادة ذلك واستشعار اليقين بامكانه ، وجوب عدم الخوف من الموت ، والايمان بالحياة الباقية ، وجوب ألا يكون الانسان شريراً حنوداً ، ولا شريراً خبيثاً ، وذا ، ولا ريب ، أهق هذه الأمور وأعضلها . ويجب ، مع هذا ، أن تكون النفس راضية قانعة ، وذا ما لم يؤت اليوم جميع الناس ، الذي نهجوا

من ميل الجنس ، وأخطوا بأصابعه ، وما ذاقوه من جديد الحياة وطريفها . والطبيب الفلسفي لا كوفسكي يضرب لنا مثلاً بتوفيتسل [1] الكيس ذي الحلم ، والنفس الراضية الطاهرة ، الذي استطاع أن يعيش قرناً كاملاً ، دون أن يعاني أية مشقة أو صعوبة ، والذي كان يفسر لك ذلك الفتح المبين في باب التعمير بقوله : « أنا كبرت سني ، لأني لم أكن في يوم من أيام حياتي ، مهروالاً ولا فاضباً » .

ولئن كان ذلك ، فما أحد أحد منا يستطيع الى هذا بلوغاً . عدَّ ذلك وامتنع . انها خطة لا يمكن العمل بها في يومنا هذا . عبثاً نحاول ألاَّ نجري ، فان هذا الزمن الذي نعيش فيه خليق بأن يدفعنا الى الاسراع والعدو دفعاً شديداً .

أما أن لا نغضب ، فليت شعري ، ما الوسيلة الى بلوغ هذا ؟ هيهات ! ذلك ما لا ينهض به الرجل الشريف ، والعرض الكريم . ان كل ما تقع عليه أبصارنا من أمور هذا العالم بعيدة كانت أم قريبة منافٍ للاخلاق ، مخزٍ للعدل ، مدبر عن الحق ، مستهجن ذميم ، سخيف دنيء لا يقره العقل الرشيد . فكل شيء مما نسمع أو نرى من أنباء العالم ، وشؤون الناس يُسئم ويؤذي ، تنوء له النفوس الكريمة ، ويستهجنه ذوو الألباب . فكيف لعمرك ، السبيل الى التزام السكينة . مع هذا ، وأنى لك التجلد وعدم الاكتراث ؟

أما إن استطاع امروء احتمال هذا الاضطراب الشامل ، ووسعه أن يكون رابط الجأش مجللاً بالوقار والسكينة ، فقد احتاج اذاً الى مقدار من الجهد العنيف يفت في عضده وينهك قواه . أليست حكمة فونتنل التي مكنته من بلوغ المائة قد صانته عن المض والمَعَض ، بأن جعلته يعزل عن أمور الناس ، وشرور الناس ، وآلام الناس ؟ فما يتأتى ذلك الاَّ لمن جنح الى العزلة ، وقرر نفسه على الابتعاد عن معارك الحياة ، والانقطاع عن ملاهي الحياة . فقد دلت الاحصاءات على ان من عمروا كانوا من البابوات والقسيسين ، ورجال العلم . فمن استطاع أن يكون منهم أو منلهم ، وراض نفسه على ما نهجوا ، فله المهنأ بطول العمر ، وبلوغ المائة كاملة وافرة » .

اعمر أبو الخضر منبي

(١) أديب فرنسي بارع وعالم متبحر في القرن الثامن عشر . وكان كاتب سر المجمع اللغوي الفرنسي الى يوم وفاته . مات في سنة ١٧٥٧ عن مائة عام وافية وافرة .

دلائل الخيرات

— اسمعي يا حورية .

— نعم .

— أتذكرين قطعة أدبية قرأناها معاً سنة ١٩٣٤ اسمها « في النار ولا تحترق » للرافعي ؟

— ماذا ؟ .. في النار ولا تحترق ؟ ... أوه .. أجل أذكرها . أذكرها بالضبط ، قصة الراقصة المتدينة التي أرغمتها الحياة على التبذل والرقص مثلنا في الليل أمام الناس لقاء أجر تقتات منه هي وأخوها الصغار ، ثم تذهب بعد ذلك فتمضي بقية ليلها — بعد أن تتطهر — في الصلاة والتعبد والاستغفار ..

— بالضبط يا حورية .. بالضبط .. إنك تذكريها جيداً ..

— وهل ننسى أمثال هذه الروائع التي تتصل بحيواتنا الأسيفة الآليمة ؟ اننا يا زينات بهما نسقط ونهيما نهوى ، فيا من ميزات الناس ! .

— لست أقصد الى هذا من تذكيري لك بهذه القطعة .

— اذن الى أي شيء تقصدين ؟

— فريد .. فريد قائد فرقة الجازباند الجديد .. هذا الفنان الذي يحيا بيننا . انه يمثل تماماً حياة هذه الراقصة التي عناها الرافعي وصوّرها لنا في مقطوعته : « في النار ولا تحترق » .

— فريد وراقصة الرافعي ؟ كيف هذا ؟ اني لا أفهم عنك . حقّا إن المايسترو فريد رجل مستقيم ، ولكن ما صلته براقصة الرافعي ؟

واعتدلت زينات في مجلسها وأشعلت سيجارة هافانا فاخرة وقالت لزميلتها حورية : إن فرقتك وفرقتي أنا أيضاً لن يأتي وقتهما الا بعد الساعة العاشرة والنصف ، ونظرت الى الساعة في معصمها وأردفت تقول : والساعة الآن التاسعة والنصف ، فأمامنا ساعة كاملة احدّثك فيها عن المايسترو فريد ، خذي هذه السيجارة .. قالت ذلك ومدّت بيدها

فحضر الساقي فطلبت منه أن يحضر كأسين كبيرتين من شراب البيرة المثلوج . ثم عادت للحديث مع صاحبتها ووجهها للسماء ، قالت :

— إني أعرف فريداً هذا من عام ١٩٣٢ حين كنت مبتدئة في حياتنا الصاخبة المعربدة هذه ، في ملهى بديعة بالجيزة الذي كان معروفاً باسم «السمرفوليز» وكان رئيس الأوركسترا يأتي في كل ليلة ومعه فريد هذا وسنه إذ ذاك حوالي السادسة عشر فيجلسه الى جواره يعزف على الكمان ، وكنا جميعاً نسأل رئيس الأوركسترا عن هذا الشاب العازف الصغير ذي الصورة الجميلة وعن سبب احتفائه له ، وكانت بعض زميلاتنا الخبيثات يتهمن الرجل بأنه يعشق ذلك الفتى . ولكن الحقيقة أن فريداً هذا كان ابن شقيقة الرجل فكان يحضره معه يدرّبه على العمل ويقدّمه في الأوساط الفنية ، وكان لفريد من نبوغه وجمال فنه ما جعله يتقدم تقدّماً لفت إليه أنظار روّاد الملهى . . ولكن حادثاً وقع بين مدير إدارة الملهى المتسعرف وبين الفتى جعل الفتى يثور ولا يحتمل غطرسة هذا المدير . ويرد إليه إهانته بأضخم منها أمامنا جميعاً ، ثم يدع الملهى ويخرج ولا يعود إليه بعدها أبداً . . وكنا نسأل عنه خاله رئيس الأوركسترا فآنا يقول إنه يعمل في الكبيت كات . وآنا يقول إنه يعمل في البيروكيه أو غيرها . . إلى أن كنا في عام ١٩٣٨ وكنت مع صديق لي في ملهى الكارلتون بإسكندرية ، وما كان أحد سروري حين رأيت الفريد هذا منتصباً بقامته المديدة وعمره الناعم يتهدّل على جبهته العريضة الناصعة ، يقود فرقة الجاز . . . وصديقي ياحورية ، لم أملك نفسي — حين رأيته — من الاندفاع إليه عقب انتهائه من عزف مقطوعته وتحيته بحرارة وشوق أثارتا حقد صديقي الذي كان معي . وبقيت على تقديره والإعجاب به طوال ذلك الصيف . وأشهد يا حورية ، لقد كان هذا الفتى الفنان ظاهراً عفّاً نقيّاً ، ولطالما انتظرت كثيراً أن يغازلني أو يدعوني — كغيره من زملائه — الى سهرة خاصة بعد العمل . فأبداً أبداً يا صديقتي ، لقد كان ملكاً وكان شاذّاً في وسطنا هذا المربوء المليء بالرجس والآثام . . تماماً يا حورية ، لقد كان كما قال الرافعي ، في النار ولا يحترق . .

وقطع حديث زينات قدوم الساقي وطلبها لمقابلة أحد أصدقائها الموثرين ، فقامت معه

بعد أن اعتذرت لزميلتها ، ولم تلتقيا إلا على خشبة المسرح وهما تؤديان أدوارهما . وبعد أن فرغتا من عملهما وذهبتا إلى حجرتيهما تخلعان ثياب الرقص وترتديان ثيابهما العادية ، أقبلت حورية على زينات في حجرتها تستحثها للإسراع والخروج لتتم لها حديث فريد . ولكن صديق زينات الثري كان بانتظارها في سيارته . وبالطبع اعتذرت زينات في رقة لزميلتها . .

* * *

ومضت الليلة وحورية تفكر في حديث هذا الفريد الذي تهتم به صديقتها ، وماذا عساها تكون حياته تلك المحفوفة بالنار ثم لا تحترق ولا تؤثر فيه النار ؟ .

وفي الليلة التالية ، في نفس المكان والزمان ، أقبلت زينات على زميلتها حورية تحدثها عن جولاتها بالنهار بمحلات الأزياء وغيرها مع صديقها الثري الأبله . ولكن حورية كانت في غنى تام عن سماع هذا الحديث المعتاد فقالت لصاحبتها : دعينا من هذا وحدثيني عن بقية حديث صاحبك فريد .

قالت زينات : آه . . إنك على حق . ثم أخرجت سيجارتين . أشعلت واحدة لنفسها والثانية لزميلتها وطلبت من الساقي قدحي قهوة . . وأحضرت القهوة واختلط دخان السجاير ببخار القهوة واعتمدت زينات رأسها بيمينها وراحت تحتسي القهوة وتجذب أنفاساً عميقة من سيجارتها ثم بدأت تقول : — حقاً . لقد عجبت لتقلبات هذا الفنان السريعة من عازف صغير على الكمان إلى قائد أوركسترا ضخمة في ملهى نجم كملهى كارلتون . . وعدت للقاهرة . . وما عدت أسمع عنه شيئاً فرأيته سبعة أعوام إلى أن كان يوم أول مايو الماضي وكنت راكبة ترام الجيزة وكان الترام يسير مندفعاً نحو الجنوب على شاطىء النيل في جهة ثم الخليج حيث النيل على يمين الطريق . وعلى يساره مبانٍ تلك الآثار الضخمة الشاهقة التي بناها صلاح الدين الأيوبي لينقل عليها الماء من النيل الى القلعة ، وعلى حافة النيل في تلك الجهة أشجار التين الهندي الضخمة المتشعبة يستظلها الناس وقت الهجيرة ويترا كمون تحتها في كثرة واختلاط يشوّهان جمال هذه البقعة الرائعة ، فهناك الأمثال المتمرّدون والمتسوّلون

وباعة الفاكهة والأغذية القذرة والخلاقون الذين يفترشون التراب والعمال العاطلون وغيرهم وغيرهم من المتسكعين . . أوه يا حورية . . في هذه البلبة ، والترام يسير سريعاً ، كانت عيني على كل ذلك وفجأة لمحت ، في غمار هؤلاء الناس ، فريداً . . أجل فريد بعينه قائد أوركسترا ملهى السكارلتون الذي لم أره من ثماني سنوات . . هو هو بعينه . . عرفته رغم أنه كان يرتدي ملابس متواضعة جداً — سترة من قماش شعبي رخيص فوقها سترة . . ولست أدري ما الذي حملني على النزول من الترام حين وقف ، والعودة الى هذا الفريد ؟ . إننا يا أختي على الرغم من ميلنا للرجل المرح الفاجر المتلاف وتفضيله على غيره من الرجال المتزنين المستقيمين ، نميل في أعماقنا الى الرجل المستقيم الفاضل حتى ولو لم يكن هناك أمل أو مطمع لنا فيه . ونزلت وعدت الى الوراء نحوه . حتى صرت قبالته . . إنه واقف أمام عربة صغيرة قذرة عليها وريقات سفراء هزيلة هي بائع كتب قديمة يعرضها للبيع رجل أشيب ، ووقف حولها بضعة من الناس يقلبونها وينتقون منها ما يروقهم ثم يساومونه على ثمنها . . ولما صرت قبالة فريد ، وقفت مبهورة ولم أجرؤ على محادثته حتى رفع هو عيناه ووقعتا عليّ فما اهتم بي ، وعبرني بنظره إلى ما كان بيده من هذه الكتب القديمة ، ولم أطق صبراً فناديته . أستاذ فريد فالتفت نحوي ثم جاء إليّ يحييني بفتور ، ولكنني ضغطت يده بحرارة وشوق وقلت له : أين أنت يا رجل كل هذه السنوات الطويلة ؟ وتمتم بقوله : في الحياة . قلت له ما هذا الذي في يدك ؟ قال ، انتظري حتى أعطي الرجل ثمن الكتاب . وبعد أن عاد سألته عن الكتاب الذي معه وجذبته — أعني الكتاب — من يده وقرأت عنوانه ، « دلائل الخيرات » فقلت له : ما معنى هذا ؟ فابتسم وقال : إسم كتاب . قلت : ماذا فيه قال : كلام يقرأه الناس المتدينون قبل الصلاة وبعدها فيه عبادة وتوجل الى الله واستغفار من الذنوب والآثام ، وعقب فتح الكتاب وأخذ يقرأ منه كلاماً ضحكت منه كثيراً ومع ذلك لا أنكر يا حورية أني كنت أحس له وقعاً في أعماق نفسي ! . .

وطال بنا الحديث ونحن وقوف أمام حاجز الشاطىء للحديدي . . وقصّ عليّ فريد حديثاً عجباً . قصّ عليّ كيف نجح في الاسكندرية نجاحاً باهراً وكيف أنشأ ملهى فخماً للموسيقى ملأت الاسكندرية صيحته ونجاحه الكبير . وقصّ عليّ كيف كان معارضاً

نفسه في انشاء هذا الملهى الذي كان يريده للموسيقى فقط ، ولكن حتى بلغ فيه الحد وصار ملهى تقتل فيه الفضائل وينشأ الجنود والرقصات . وقال لي فريد : انه كان يمنّ نفسه بهذا العمل خارجاً على نواميس الفضائل وقواعد الاجتماع النظيفة ، وان أمانيه واستقامته كانتا تتغصان عليه حياته وتجعلانها جحيماً لا يطاق .. هو الرجل المستقيم القادر يدير ملهىً للرقص والخمر والرذيلة ؟ . ويدفع أيضاً الرشا لرجال الأمن وحماة الآداب ؟ .. أجل هو يفعل هذا ، وهو ثائر على نفسه غير راضٍ عنها من أجل هذا . ولكن شيئاً واحداً لم يرضَ أن يفعله ولو قد فعله لارتفع وارتفع . هذا الشيء الذي لم يفعله هو تقديم النساء .. النساء كلون من ألوان الرشوة .. أبداً .. أبداً لا يقدم النساء . وأبداً لا يكون قوّاداً . واذن فليتعرض الملهى لمعاكسات رسمية واضطهادات سافرة وتحرير مخالفات له وعدم حمايته وحمايةً ملهاه من عبث الجنود المعربدين وإذن فليخسر وليخسر .. وليفشل المشروع الضخم بعد نجاح كبير . وليصفي الفنان حسابه وليعجز أصحاب الديون على أثاث الملهى وليخرج فريد هذا الفنان الكبير من الاسكندرية كما كما دخلها خاسراً أكبر الخسران في هذه الأيام التي أثرى فيها حتى الحيوان ! .. وليعد الى بيته القديم المتواضع في عطفة السكر والليمون يرعى اخوته وأهله بعد موت أبيه ويرعى مع ذلك عبادته وفنه .. ثم يدعى ثانية قائداً للموسيقى في ملهانا هذا الذي نعمل فيه . هكذا حدّثني وتأثرت ياحورية وسال دمعي وفريد يقص هذا الحديث . كان يومها يتحدث وصوته المتهدّج كأنه لحن مُعاوي منبعث من قيثارته فيهتز له كياني . وختم حديثه بقوله : وأيقنت أخيراً ياسيدتي ، وبعد كل هذا ، أن ليس للانسان إلاّ عمله الصالح . أما الربح الطائل المحرّم ، وأما العيش انتاجر . وأما الاستهتار بالفضائل .. أما كل هذا : فيذهب جفاء ! ..

* * *

ولم تكد زينات تفرغ من حديثها حتى كان ظلاء وجهها ، قد أتلفه ذلك الدمع الغزير المنهمل من عينيها السوداوين الجميلتين ! . وحلّ موعد عملهما فقاما اليه . ولكن زينات ! مالها الليلة ؟ وماذا أصابها ؟ ما هذا الجمود والثقل في الحركة ؟ ثم ماذا أصاب جمهورها المعجب

بها ؟ إنه لا يضيق لها كثيراً عن عادته ولا يطلب تكرار نمرتها مراراً كما يفعل كل ليلة قبل الليلة ؟ أود . وما زوجها لا تتصل بأرواح جمهورها ولا تؤثر فيهم ؟

* * *

في اليوم التالي وفي وقت الأصيل ، كانت حورية تجلس في شرفة الملهى تنتظر صديقتها زينات وكأنها تنتظر حدثاً ذا بال . . وأقبلت زينات . . فأي إقبال هذا ؟ . . زينات ، الفتاة المرحة اللعوب الطروب الراقصة للفاتنة ، تمشي على استحياء ! وعليها مسحة من جلال ومهابة ! ! . . وحورية ؟ حورية هي الأخرى ، ماذا دهاها فأجفلت عن استقبال صاحبتها بعذاباتها الخزلة الماجنة كعادتها ؟ . . وفوجئت حورية بزينات تحييها تحية جافة جادة : السلام عليك . ولم تشهق حورية ضاحكة ولا صاخرة من صاحبتها وإنما ردت التحية في وقار وجفاف ، أرغمت عليهما إرغاماً . . وجلست زينات وطلبت قهوة وراحت تحتسيها مع صاحبتها في سكون وصمت . ثم قطعت زينات الصمت بقولها : وبعد ، فياحورية ، لقد أتيت الآن لأودعك أيتها الرفيقة الحبيبة وأتمنى لك ولحياتك ، هذه الصاخبة الماجنة ، نهاية رزينة سعيدة ، كنهايتي . قالت حورية على الفور : أية نهاية ؟ خبريني يا أختاه . أعثرت وجه صديقك الجديد الثري ؟ قالت زينات : صديقي الثري ؟ . . كلا يا صديقتي ، إنه صديقي الفقير المتدين [illegible] معه وقتاً طويلاً نقرأ في كتابه « دلائل الخيرات » . . يا صديقتي لقد آمنت معه . . آمنت بقوة أن ليس للانسان غير عمله الطيب وصفاء نفسه . . وآمنت معه بشدة أن الموسيقى والدين كلاهما يسموان بالنفس وينقيانها من الشوائب والأدران ، وأنهما يطهران الروح ويدلان بها إلى عليين . . سأتزوجه ياحورية . . وسأحيا معه للدين والموسيقى . . لقد اتفقنا على ذلك . . وسأبقى معه في منزله المتواضع ، لا أبرحه أبداً ! . .

ثم قامت سريعاً ، وقبلت صديقتها ، وتركت الملهى إلى منزل الزوجية . . الى منزل فريد الموسيقار حيث الطهر والاستقامة و . . كتاب دلائل الخيرات . .

محمد طلعت دنيا

٢٠٠ ألف دولار

تبرع لبناني لمكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت

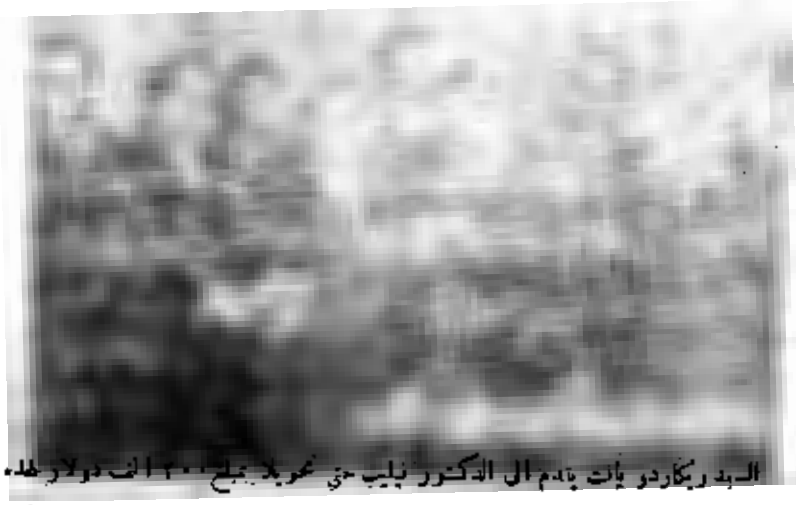

السيد ريكاردو يافث يقدم الى الدكتور بايلي حتي تحويلا بمبلغ ٢٠٠ الف دولار لهذه المؤسسة

تردّد نبأ الهبة التي جاد بها ورثة المرحوم نعمة يافث اللبناني لبناء مكتبة في الجامعة الأمريكية ببيروت وهي مائتا ألف دولار . وقد وصفها مكتب جمعية الكليات الأمريكية في الشرق الأدنى بأنها أكبر هبة في سبيل العلم جاد بها مهاجر من أصل عربي .

أما الواهبون فهم أرملة المورث وأولاده السبعة . وكان المرحوم نعمة يافث من أثرياء المهاجرين اللبنانيين الذين توطنوا البرازيل وتعد الشركة التي أسسها باسم شركة يافث وأولاده من أعظم الشركات الصناعية التجارية في البرازيل ولها عدّة فروع ، ومن مؤسساتها وممتلكاتها مصرف ومنجم ومصنع للغزل والنسج لا نظير له في تلك البلاد . وستعرف المكتبة باسم مكتبة « نعمة يافث » وتكون أول منشأة تحمل إسماً عربيًّا

ومما يذكر عن المورث أنه ولد سنة ١٨٦٠ في بلدة الشوير بلبنان ، وتخرّج في الكلية السورية الانجيلية ببيروت ، وقد أصبحت فيما بعد الجامعة الأمريكية . وكان من رجال العلم ، مولعاً بعلوم الرياضيات وله مؤلف في الحساب وقد أسس الأكاديمية الشرقية ببيروت سنة ١٨٨٠ وهاجر الى البرازيل سنة ١٨٩٣ وتوفي فيها سنة ١٩٢٤ .

ولأسرته شهرة في أعمال البر كشهرتها في أعمال التجارة . فلا يخلو مشروع وطني أو خيري في البرازيل من أثر كرمها . واعترفت بلدية ساو باولو بفضائلها فخلدت ذكراها باسمها.

مكتبة المقتطف

١ — صحائف مطوية

لمدالي احمد لطفي السيد باشا

لهذه الصحائف أكثر من جانب يمهد لها سبيل البقاء، ويخلع عليها هذه الحلة التي تصل بينها وبين القلوب، وتجعلها محط العناية من الأذهان المتعطشة إلى هذا المنهل التاريخي للارتواء منه، لأنها الاطار الذي يضم صورة رائعة من التاريخ المصري. ونموذج من تلك الحوافز التي تستثير الأمم. فتهب صارخة في وجه من يأخذ عليها طريق الحياة الحرة الكريمة، والذي يعطي هذه الصحائف كل هذه الأهمية. أنها سجلٌ دقيقٌ لهذه الحالة النفسية، والشعورية، والعقلية، التي تليست هذه الأمة في فجر نهضتها، ولا يرى الكاتب بالمغالاة عند ما يعلن. أنها سجلٌ صادقٌ لهذه الفترة، لأنها قد كتبت تحت تأثير هذه العوامل والحوافز، وصوِّرت بهذه الألوان الشعورية النفسية التي كانت تعمل الظروف على تلوينها من يأس، ورجاء، وتحفز، وإستنهاض، ومقارعة لحجج طاغية، ظالمة، وتفنيد لمزاعم، والمصاولة في ميدان الرأي، ولا شك أن هذا الصراع المخيف، المريب، يأخذ أكثر ما يأخذ دائماً من تلك النفوس التي تمتاز بالاحساس المرهف، والقلوب التي تزخر بالعواطف الوطنية الانسانية، والخواطر التي تجيش بمختلف النوازع الانسانية الرفيعة، وهل تنال هذه الأحداث من شخصيات ما تناله من تلك الشخصيات. ذوات المذاهب الملتهبة، وأصحاب المثل العليا في الحياة، فوقف — لطفي باشا — من تلك الثورة التي أشعلت كل شيء. موقف لسانها الناطق، وقلمها المسطر، ومصوِّرها الحاذق، ولا يتهيأ الوجدان الحي،

المبدع ، لنقل هذا الجو كله ، كما يتهيأ لمن يستوحيه ، وهو تحت تأثيره ، ويستعليه كل ما يمكن أن يمليه ، أو يوحيه ، مما يطبعه بطابع خاص ولون لا يحول ، بقاءت هذه الصحائف مرجعاً ، أميناً لمن تهفو روحه ، ويتطلع ناظره إلى مشاهدة تلك الفترة العصيبة الحافلة ، في تاريخ الأمة المصرية . فكم يعاني المؤرخ من المتاعب ، ويتحمل من الجهود عند ما يحاول التأريخ لفترة ، أو يرسم صورة لحقبة من الحقب . قد بأعد بينه وبينها الأمد ، واستطاعت الحوادث المتدفقة ، المتغيرة ، المستمرة ، في غير هدوء ، ولا هوادة ، ولا كلال ، أن تطمس كثيراً من الألوان التي كانت براقة في حينها ، ويدعى على معالم كان لها بروزها في ماضيها ، وشخصيتها في ميدانها ، وأن تبرز أخرى بفعل الزمن ، ومخلوفات الظروف والمصادفات ، وما تحمله البيئة التي هو ثمرتها في عقله وخياله ، وحكمه على الأشياء ، وتصوره للحوادث مع الاختلاف الذي يكثر حيناً ، ويقل أحياناً ، فهما كانت استعانته بما بقي بين يديه من المواد التي يريد البناء منها ، واتخاذها وسيلته ، ومهما يجهد في تخلصه من بيئته ، ومحاولة إندماجه في العصر الذي يريد تصويره يسقط منه كثير من الأوابد التي تستعصي على التيد ، ويعز عليه أيضاً كثير من الدوافع ، والبواعث التي كان لها سلطانها ، ثم دالت دولتها ، وعفى عليها النسيان ، أترى لو أن قلماً من هذه الأقلام التي لم تلابس هذه البيئة ، وتعيش مع هذه الأحداث في ميلادها ، وطفولتها وشبابها : يستطيع أن ينقل اليك هذه الصورة التي نقلها الينا قلم لطفي باشا — ليس هذا في مقدوره ، ولا طوع إرادته ، وما هو قلم لطفي ؟ وما ذهن لطفي ؟ وما منطق لطفي ؟ وما اتزان لطفي ؟ وما ثقافة لطفي ؟ إن هذه الخصائص ، والمواهب التي تحملها هذه الشخصية يعز مثلها كثير في كل أمة ، فكل شيء يزكي هذه الصحائف . فليس هو بالقلم الهزيل ، ولا بالذهن الكليل ، ولا بالمنطق المختل ، ولا بالثقافة الضحلة . بل قد اجتمعت كل هذه الجوانب على أكمل ، وأتم ما تكون هذه المواهب ، هذه بعض الجوانب العامة ، ولهذه الصحائف جوانبها الأخرى من حيث الكشف ، والابانة عن ناحية من نواحي عبقرية — لطفي باشا — هذه العبقرية التي هي خليقة بالدراسة ، والتحليل ، وفاء بحق التاريخ وأمانة نقلها للأجيال المقبلة وضناً بهذه الشخصيات التي لها في التراث الانساني ثمرات ناضجة ، وفي توجيه أمتها أعظم الأثر ، بهذه الرسالات القيمة التي أدتها ، وتجمعات حيثما ،

وهل يتهدى الباحث أن يقدم ترجمة صادقة دقيقة ، لشخصية نابغي باشا — إذا نضب هذه الجوانب محجوبة ؟ أليس المترجم لشخصيات تاريخنا العلمي ، أو الأدبي يصطدم دائماً بهذه الصخرة التي توهي قرن كل من يحاول كتابة حياة . ما دامت تقف حياته هذه الحصلة . معضلة اختفاء جانب من جوانب شخصيته الفكرية وضياع أثر من آثاره ؛ أيستطيع مثلاً مؤرخ أن يزعم بأن في مقدوره اعطاءنا ترجمة وافية بكل جوانب شخصية مثل ـ الجاحظ ـ ما دامت بعض آثاره لا تزال في طي الخفاء ، أليس هذا المذهب يحمل كثيراً من الصواب عند ما يعلن ضرورة اتخاذ آثار الرجل مفتاحاً لشخصيته ؟ لأنها هي السبيل الوحيد ، المأمون لمعرفة هذه الشخصية ، وللأستاذ الكبير — اسماعيل مظهر — جهوده الموفقة ، المشكورة في سبيل تزويد الجيل بثمرات أستاذ الجيل ، أمدّ الله في بقائه ، وأعانه على تأدية رسالته — الارسطاليسية — التي يجاهد في تبليغها ، والتي يقف عليها أنضج أطوار عقله لتمكين جيله من معرفة ـ أرسطو ـ وتذليل الصعوبات للانتفاع به .

٢ — الرسالة الخالدة

لمعالي عبد الرحمن عزام باشا

قوبلت هذه الآراء القيمة في أصول الدعوة الاسلامية التي ضمنها ـ معالي عزام باشا ـ رسالته الخالدة وتناوله لمسائلها بهذا الاسلوب الدقيق العلمي ، واقامة الأدلة على سلاحيتها لأخذ بيد الانسانية المتعثرة الحائرة في مهب عواصف المذاهب المتسلطة ، وإعلانه ألاّ ملجأ لها بعد أن نالت منها الشدائد ، وأهوت قواها الخروب ، واستنفدت مخورها الأهوال ، إلاّ الاعتصام بهذا المرفأ الأمين المريح ، مرفأ الشريعة الاسلامية ، وقد قابلت الأمة هذا النداء بما تقابل به الدعوات الحيوية . التي تبتعث الحين بعد الحين ، فكأنها تنفس عن كل قلب ، وتهدىء كل خاطر ، وترد عاذب كل أمل ، فالقول بأن الرسالة الاسلامية ، رسالة إنسانية عامة تتطلبها كأحوج ما تكون إليها ، أصبح من البدائه التي تنزل من القلوب منزل الايمان الراسخ ، وكل ما يضاف إليه للعالم هو رفع هذه الغشاوة ، وإزالة هذا الصدأ عن تلك التعاليم التي طال ثواؤها تحت الأتربة التي كدّستها فوق بريقها ، وأثارت الصعائب على

وضاءتها المجن ، والنكبات التي اندلعت على المجتمع الاسلامي ، ووكلت به كل شر ، وأزلت بروحه من القوادح ما تركه مهيضاً ، واهي القوى ، ينوء تحت عبء الاعياء ، وبات روحه ضاوياً هزيلاً ، من طول معاناته ، ومغالبته ، ومعاودته ، حتى إذا هتف الصوت الذي يبشرهم باقتراب فكاكهم من إسارهم ، وبالنور من ظلامهم ، تلقفته الآذان في شوق ، وتجاوبت بألحانه الافئدة في ولع ، وأخذتهم نشوة من يستشعر دبيب القوة يسري في أقطار جسمه ، وإحياء كيانه ، فأثر أميان هذه الدعوات لا تحده الدائرة الفكرية ، ولا تستطيع أن تنشر الجوانب العقلية كله ، بل هو يفيض ، وينال في أطراء الشعور ، ويتدفق لطيفاً ، هادئاً ، منعماً في ثنايا الاحساس ، وتنبض به الآمال الداوية ، الدائبة ، فإذا ما أخذت الأمة تنفعل من هذه النواحي ، وتحيش عواطفها من هذه الطرق ، وتدب الحياة قوية في نواحيها بهذه الأساليب ، فقد شاعت فيها روح الشباب ، واستلأمت لمقاومته ، وتألقت بهجته فإذا ما استطاعت الدعوات أن تنقل الأمة هذه النقلة ، وتفيض على روحها من هذا الفيض فقد أدت خير ما يمكن أن تؤديه ، وما كان يفوز تلك الرسالة وقد أخذت تنقشع الغمة التي طالت ، وثقلت ، غير هذه العقليات التي زودت بألوان الثقافة ، وأكسبتها التفكير الطويل والتجارب المتعددة والقدرة على النقد ، والتمييز بين الصحيح ، والسقيم ، من الأفكار ، وان تمد بصرها لاستبطان هذه النظم التي تسيطر على العالم ، وتكيف موقفه ، وتتحكم في مصيره ، فإذا ما رزقت الدعوة المحمدية هذه القرائح والاقلام لتقديمها برئة من الشوائب التي تشوبها وتدفع عنها تجني الظلم ، وتقيها اجحاف الطغيان فقد استطاعت أن تسترد موقفها وتتابع رسالتها في مجرى التاريخ ، وبناء الحضارة العالمية ، ومعالي ـ عزام باشا ـ شخصية قد أتاحت لها ظروفها أن تساهم في السياسة ، والاجتماع ، وغيرها ، وتفهمها فهماً جيداً ، وإدراك تلك التيارات التي كانت تجري في الخفاء ، ولا تستطيع العين البعيدة أن تأخذها ، وقد فرغ من كل تلك الدراسة : والمشاركة في التوجيه ، والاشراف العقلي ، بنتائج لها خطرها وأثرها في الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والروحية وهي أنه لا أمل في نجاة العالم ، ولا مفر له من تلك الأهوال التي يكتوي بلهيبها ما دام يعتنق تلك المبادىء التي لا يمكن في نظره ـ ونظر العقل السليم ـ أن تستأصل الداء ، ولا حيلة في تكرر المأساة بين حين وآخر ما ظل

العالم تسيطر على روحه تلك المذاهب المادية الملحدة ، ولا ملجأ له إذ أراد أن يحيا حياة مائلة متآخية إلا أن يمكن من قلبه تلك المبادىء الخالدة التي حملها الرسول العربي الى العالم وريانة عقله على تمثلها ، واجتنابه بذور التعصب الأعمى ، والتعامل البغيض حيال تلك الدعوة المهذبة السامية ، وقد جاءت هذه الرسالة التي قدمها — عزام باشا — دليلاً على مبلغ تمكن ذهن هذا الرجل ، وصفائه ، وإلمامه بدقائق تلك الدعوة ، وخفايا معضلات حياتنا الحاضرة ، ومنطقه البارع في مناقشة ما هو بسبيله ، وتقديم رسالته الجديدة في سبيل رد تلك الاتهام التي تلفقها الأغراض المدخولة ضد الدعوة الاسلامية ، فما أحوج الأمة الاسلامية ، وهي تحط ألوان كثيرة من المذاهب ، والدعايات أن ينهض من يملكون هذا المنطق ، المزودين بتلك الثقافة أن يبثوا لهذا الجيل بريئاً من كل شائبة ، كلٌّ في ناحيته يتولى علاجها ، فتقيم الحجة للعالم أجمع على أن هذا الدين أكمل رسالة عرفتها البشرية ، وأن رسوله المثل الكامل للانسانية ، وأن أمته خيرُ أمةٍ أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر .

٣ — يسألونك

للاستاذ عباس محمود العقاد

ملكات ثلاث . تتساند في سبيل إبراز الإنتاج الأدبي : ملكة التفكير : ومجالها التحليل ، والمنطق ، وملكة الخيال ، ورسالتها التصور والتصوير ، وملكة الأداء وتتجلى في الأسلوب ، وفضل أن تآخي ، وتتعاون ، في نتاج كاتب كما نظر في نتاج الاستاذ — العقاد — فسلطان الفكر . الحر ، يطالعك في كل ما يقع عليه طرفك : والخيال المصور اللطيف ، تتراءى أطيافه في كل مجال ، وملكة الأداء ، تبرز جلية ، فاصعة محكمة ، في هذا التسلسل ، المنسجم ، في إحكام ، فلا خشو ، ولا اضطراب ، ولا فضول ، بل هو أسلوب صريح . لا رغوة فيه . وأظهر ما تظهر هذه الملكات الثلاث في هذا الكتاب ، فهو مقالات متفرقة ، وليدة ظروف متباينة ، ولكن هناك فكرة تربط بينها ، وتجمع بين أطرافها ، هي . أسلوب الدفاع ، وقوة التحليل ، إذ هذه المقالات استجابة لأسئلة أثارها بعض القراء

فتصدّى للكتابة عنها ، وقضايا اختلط على كثير من العيون وجه الرأي فيها ، فتولى دراستها ، وفيها تبرز تلك الملكة على أتمها ، عند — العقاد — فهو لم يتصدّ للعمل في هذه القضايا بملكة الأديب فقط ، فما أقل غناءها . وحدها في هذا المجال ، بل بمواهب القاضي ، وقريحة الفيلسوف ، وبداهة الأديب ، فلا يسعك . إلاّ أن تحمد له تلك اليد التي أزالت ماكان يعتلج في نفسك ، ويبلبل خواطرك ، ويروض ذهنك على هذا الأسلوب الفكري ، المستقيم ، ومعاونته على أن ينفذ إلى الحقائق ، ولا يظل طافياً على السطوح ، وأن يلج الى البواطن فلا تحتجزه الأسوار ، وعندي أن شيوع هذا النوع من الكتابة تكون له آثاره العميقة في الأقلام الناشئة ، والملكات الوليدة ، فيحول بينها ، وبين لوثة الثرثرة الجوفاء ، ويباعدها عن الولع بالبريق الخلاّب ، تتبين كل هذه الخصائص في كل مقال في هذا الكتاب ، أنظر إلى نمط تناوله ، وعلاجه ، لهذه النكسة التي تحمل بعض الناس على الدعوة الى اتخاذ العامية مراعاة لشعور الفقير لغة نستخدمها في شؤون الفكر ، والأدب . فيرد قائلاً في مقالته العامية والفقر — العامية قبل كل شيء هي لغة الجهل وليست بلغة الفاقة ، أو اليسار ، وبين الأغنياء كثيرون لا يحسنون الكلام بغير العامية . التي لا جمال لها ، ولا طلاوة ، وبين الفقراء من يحسنون التعبير بالفصحى ، أو يعبرون بالعامية تعبيراً يزينه ويحليها ، وتبدو عليه طلاوتها ، فإذا عطفنا على العامية فإنما نعطف على الجهل ، ونستبقيه ، ونستزيده ، ولا نخفف وطأة الفقر ، ذرّة ، واحدة بتطبيب عبارات الجهالة على العبارات التي تصاغ بها آراء المتعلمين ، والمهذبين .. وماذا يفيد الفقراء أن يكون الأغنياء الأكواخ ، وماذا يفيد الفقراء أن يتكلم المتعلمون لغة الجهلاء ، وماذا يفيد الفقراء أن أساويهم في الحرمان من المال ، والعلم ، ومن الفصاحة ، وقدرة التعبير ، انما يفيد الفقراء أن تصبح أكواخهم قصوراً ، أو كالقصور في الاراحة ، وتصحيح الأبدان ، وإنما يفيدهم أن يكون نصيبهم من اللغة كأحسن نصيب يتعلمه المتعلمون . فان لم يبلغوا هذا المبلغ فالفائدة ألاّ يكون نصيبهم منها أحقر نصيب ، وألاّ نسجل عليهم هذه الحالة المزرية كأنهم لا يصلحون لغيرها ، ولا يطمحون الى ما فوقها .

على هذا المنوال ينسج مقالات ، ومحوث هذا الكتاب ، وقد صدّره بمقدمة قيمة في

أدب المقالة . أدارها حول نشأة هذا الفن في الأدب العربي ، وامتزاجها بأدب الفصول وأدب المقامة ، وفي الآداب الأوربية ومرج على تحليلها ، وكل مقالة من هذه المقالات تستقل بفكرتها ، وتمتاز بتركيزها ، حتى ليعد فيها من يتعمقها وينميها ، كتاباً مستقلاً ، ويكاد يكون هذا طابع — العقاد — في كل ما يحاوله من هذا الضرب من المقالات ، ولم يتعدَّ حدود الواقع في اعتقاده أنه ينبغي أن تكون المقالة مشروع كتاب في موضوعها لمن يتسع وقته للاجمال ، ولا يتسع للتفصيل ، فكل مقالة في موضوع فهي كتاب صغير يشتمل على النواة التي نبتت منها الشجرة لمن شاء الانتظار ، وأوجز ما يقوله الناقد في أمثال هذه الابحاث ، انها من قبيل الفلسفة الأدبية ، أقرب منها الى أي شيء آخر

محمد عبد الحليم عبد العزيز

أعمدة التلغراف

نشر الأستاذ عبدالله المشنوق في مجلة « الأديب » البيروتية قصة بعنوان « البؤس المكتوم » سرق الفكرة الرئيسية فيها من قصة نشرها المقتطف في عدده الصادر في مارس سنة ١٩٢٨ نقلاً عن الروائي المعروف الكسندر غلواكي البولوني بعنوان التلغراف . ونحن ننقل هنا ختام القصتين ليكون ذلك حكماً بين المقتطف وحضرة الأديب المشنوق

قال المشنوق — « لست أدري لماذا انتقل فكري — ساعتئذٍ — الى التلغراف .... لست أدري ، ولكني أعلم حق العلم اني ربطت في ذهني هذا الحادث بما يجري عادةً عند ما يرسل الى أحدنا برقية . فهناك محطة مرسلة ترسل النبأ . وهناك أسلاك مركوزة على أعمدة تنقل النبأ ، وهناك محطة لاقطة تتلقى النبأ ، هذا هو التلغراف . المحطة المرسلة هنا هي هذا البائس المصدور وأطفاله الخمسة ، والمحطة اللاقطة هي البائس المعلم ، وأما أنا ، وأما صديقي التاجر المعتبر ، وصديقي الصانع الكبير ، والطبيب المثري الكبير — أولئك المعتذرون جميعاً — فقد كنا أعمدة التلغراف » .

وقال غلواكي كما نشره المقتطف : « ان وقوع هذه الحادثة في أثناء وجودي معك — وأنت أستاذ لفلسفة الطبيعيات — أخطر ببالي فكر المخاطبة التلغرافية بطريقة جديدة . فالمكتب الرئيسي لهذا التلغراف كان ملجأ اليتامى والمكتب الذي تسلمه كان العامل في مصنع القبعات . فلما أشار الأول مسترعياً الانتباه لنبأه الثاني من فوره . وعندما صرَّح ذاك بحاجته يادر هذا الى قضائها . أما نحن الباقين فكنا — كلنا — أعمدة التلغراف »

فليعتذر الأستاذ المشنوق ولكن الى غلواكي فالمقتطف متنازل عن حقه

لمكتبة المقتطف

ننوه بهذه الآثار الفكرية في هذه العجالة وموعدنا بنقدها قريب

١ ◆ أوديب — تيسيوس : ترجمة طه حسين عن اندريه جيد : ٣١٠ صفحة من القطع الأوسط : دار الكاتب المصري .

٢ ◆ الناطقون بالضاد في أمريكا : نشره بالانكليزية معهد الشئون العربية الأمريكية في نيويورك سنة ١٩٤٦ وترجمه وعلق عليه « البدوي الملثم » : ١٠٠ صفحة من القطع الكبير : المطبعة التجارية بالقدس .

٣ ◆ الاقطاع والديوان في العراق : تأليف عبد الرزاق الظاهر : ١٦٨ صفحة من القطع الكبير : مطبعة السعادة بالقاهرة : ١٩٤٦ .

٤ ◆ ترجمة الامام احمد بن حنبل ١٦٤ — ٢٤١ هـ . نقل عن تاريخ الاسلام للحافظ الذهبي (٧٧٣ — ٧٤٨ هـ) حققه الأستاذ الشيخ احمد محمد شاكر : دار المعارف للطباعة والنشر : ٨٤ صفحة من القطع الكبير : ١٩٤٦ .

٥ ◆ السلام الاجتماعي : تأليف الأستاذ الحر عبد المجيد نافع المحامي : ٢٦٦ صفحة من القطع الكبير ، نشرته دار الفكر العربي ، ١٩٤٦ : وسننشر عنه نقداً في العدد التالي من المقتطف .

٦ ◆ تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط : تأليف الأستاذ يوسف كرم المدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول : ٢٦٦ صفحة من القطع الكبير : نشرته دار الكاتب المصري : ١٩٤٦

٧ ◆ أؤمن بالانسان : تأليف الأستاذ عبد المنعم خلاف : ٢٥٦ صفحة من القطع الأوسط نشرته مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة : ١٩٤٦ .

٨ ◆ تاريخ مصر في عصر البطالسة : جزآن صفحاتهما ٩٣٠ من القطع الأكبر : تأليف الدكتور ابراهيم نصحي أستاذ مساعد التاريخ القديم بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول : نشرته مكتبة النهضة المصرية ، وطبع في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر : القاهرة ١٩٤٦

٩ ◆ مدونة جوستنيان في الفقه الروماني : ترجمها عبد العزيز فهمي باشا : ٤١٠ صفحة من القطع الكبير ، دار الكاتب المصري : ١٩٤٦ ، ويلي متن المدونة نظام للوارث وضعه جوستنيان ويليهما بعض قواعد وتقريرات فقهية رومانية وبعض تقديرات أخلاقية .

١٠ ◆ نبي الاسلام : The Prophet of Islam تأليف السيد محمد علي ، وهي مكتوبة بالانجليزية واقعة في ٤٦ صحيفة من القطع الصغير ، وقد طبعت أربع طبعات متوالية بين ١٩٢٨ و ١٩٣٨ ، وحبذا لو أقدم أحد ابناء العروبة على ترجمتها الى العربية .

فهرس الجزء الاول

من المجلد العاشر بعد المئة

١ الفساطرة في أسيا : اسماعيل مظهر
١١ الفكر العربي لا يزال في الاغلال : مسلم حر
١٧ المحاكم المختلطة في تاريخ مصر القديم : دكتور باهور لبيب
١٩ ألعوبة الحرية : حسين المهدي غنام
٢٨ الشتاء (قصيدة) : شاعر البراري
٢٩ تحدّى ! : اسماعيل مظهر
٣١ كتاب من الدكتور طه حسين عن القضية العربية
٣٢ الكنوز النفيسة في المقامات الخمسية : عوض جندي
٣٥ تخريج كتاب الملل والنحل للشهرستاني : محمد بن فتح الله بدران
٤٣ الكلوري والحرارة : عباس مهدي
٤٤ الى النيل (قصيدة) : عفيفي محمود عفيفي
٤٥ صحافتنا تنحدر : ا . م .
٤٨ واجعل خيالك واقعاً أو مت عنا (قصيدة) : أيوب
٤٩ واجب الشاب العربي : أحمد الشرباصي
٥٦ قصة التاريخ : شكري فيصل عاشا
٦٣ كيف نعيش مئة عام : أحمد أبو الخضر مدني
٦٧ دلائل الخيرات : محمد طلبة رزق
٧٣ ٢٠٠ ألف دولار — تبرع لبناني لمكتبة الجامعة الاميركية ببيروت
٧٤ مكتبة المقتطف ١ — صفحات مطوية : لمعالي أحمد لطفي السيد باشا . ٢ — الرسالة الخالدة : لسعادة عبد الرحمن عزام باشا . ٣ — يسألونك : للاستاذ عباس محمود العقاد : محمد عبد الحليم أبو زيد . أحمد الطراف . لمكتبة المقتطف

لحق

القسم الثاني من الحق والقوة

لواء المقتطف الشهرية

الحق والقوة

— ٢ —

دراسة اجتماعية

بقلم

أرسانه لوباف

ترجمة : سليم سعوه

«اذن يجب ادماج العدل بالقوة . . . إذ أنهم لما لم يستطيعوا
«أن يجعلوا مما هو عادل قويًا فانهم جعلوا مما هو قوي عادلاً »

« باسكال »

طبع بمطبعة المقتطف بمصر
١٩١٧

الفصل الخامس

العادة والقانون

لقد رأينا كيف أن قانون العلاقات الخارجية يؤدّي إلى وجود عادات يتبعها — ولو بعض الوقت — أغلب الأفراد والجماعات . ولكن نظراً لأن تلك العادات وليدة عقوداً ومعاهدات عرفية أو خاصة ، متفق عليها أو مفروضة ، فإنها لا تعمر طويلاً وتزول سريعاً وقلّ أن تنال إجماع الآراء والموافقة التامة إذ ينشأ عن تطبيقها اختلافات تجعل من الصعب إدراك ما ترمي إليه واستعمالها . وإلى جانب هذا العيب في الوحدة والموضوع توجد موانع عدم الاستقرار . فاذا تغيرت الحال وشاء أحد الأطراف مخالفة العادات المقبولة فليس هناك ما يحول دون تعديلها أو تغيير طريقة الاستعمال إن لم يحل دون ذلك اتحاد أنصار القديم والمحافظين على العادات إذا كانت لهم القوة والسلطة الكافية في الدفاع عن مصالحهم والمحافظة عليها .

ولكن عند ما تندمج الفرديات — التي كانت فيما مضى مستقلة — في نظام قوي فإنها تضحي باستقلالها في سبيل الانتفاع بفوائد الاتحاد . وهنا يتحد من الاستعمال سلطة انعاده . إن الأساس واحد وطرق التصرف تتكرر كثيراً فهي إتفاقات بين الأطراف المتعاقدة وهؤلاء يفضلون عادةً توفيق مصالحهم على أساس ما يتمتع به كل منهم من السلطة والقوة بدلاً من إستنفادها في حروب يتلافون مشقتها وخسائرها . هذه القواعد تستخلص من تقارب الأعداء وتداني الأفراد واتحاد المعاهد القائمة بأعمال مختلفة أو متشابهة . إن علاقاتهم الضرورية لا تتوطد بدون مشادة . فقبل أن يوحّدوا جهودهم ونشاطهم يحاول كل منهم أن يحظى من مكانته بأكبر قسط وافر ، وأن ينال أقصى ما يمكن نيله ويعطي أدنى ما تسمح به نفسه . على أن هذه العلاقات لا يمكن أن تمتد وتتمادى لأن ضرورة التعاون تحتم إتفاقاً يحول دون معاملتهم بعضهم معاملة الأنداد وتنظيم جهودهم . وهذه العلاقات

تتخذ — بعد روح من الزمن — صفة الدوام في ظروف ثابتة في الحياة الاجتماعية . إن حركة الأعضاء وتفاعلها تولد سلسلة أعمال تتكرر وتتجلى بسلسلة علاقات تحددها قواعد لا تلبث أن تصبح إرادية . ولما كانت الحالة باقية بدون تغيير أو أنها تتطور تطوراً بطيئاً ، فإن المستقبل يحتفظ في ثنايا مشروعاته الكبرى بصورة الماضي وهكذا تكون قاعدة العلاقات المستقبلة في التقاليد القائمة على السوابق المتعمدة .

وهكذا فليست القاعدة هي التي تحدد الوظائف ، ولكن الوظائف المتجمعة من تلقاء نفسها هي التي تعبر عن نفسها عن طريق القاعدة حيث تجد فيها كل واحدة منها ماهيتها وصورتها . ويتملك الحركات ، في أدنى تقلباتها ، شعور قوي وينظمها مجموعة من الإجراءات الدقيقة المبني . فتهب على المتعاملين ريح جذابة وتستميلهم وتستهويهم إلى التعامل والبذل . وتتحد دائرة علاقاتهم وتتخلل ثناياها وتملأ خصاصها وتحاول أن تنفذ منها إلى مجال أوسع في التعامل ولن تجد أنسب من البذل .

تلك العملية المنظمة المشتركة التي تمت باتفاق الجميع غير خاضعة لطريقة محدودة ولكنها تلاحظ عند الاستعمال إن السلطة المركزية لا تصدر هذا النوع من القواعد ولكنها تحترمها وتقدسها بأن تضع القوة في خدمتها لتنفيذ أحكام المحاكم التي تطبقها ، إذ أنه من الضروري أن توجد سلطة فوق الخصوم المتمنعين لتفصل في النزاع [illegible] بهم وتملي أمرها عليهم وتنفذ قرارها باستعمال القوة التي تتمتع بها . تلك السلطة التي تسود على الأفراد والجماعات لا تقتصر على قياس القوات المتنازعة ووزنها فهي أيضاً تساهم وحي تصرفها من مجموع المصالح المشتركة في المجتمع لأنها تتولد عنه وتشتق منه . وأولى هذه المصالح هي المحافظة على السلم . وتلك السلطة تعطي لكل نزاع الحل الذي ترى أنه أنجع لمصلحة المجموع . وتستخلص من كل حالة نوعية المصلحة العامة وتفضلها على غيرها بقدر ما تستطيع ضمان احترام قرارها . وهكذا فإن السلطة العليا ذات الشكل القضائي تؤدي عملاً تشريعياً . ومن أحكامها النوعية تتألف مجموعة من القواعد التي تتجلى ضمناً ويعطيها الشراح شكلاً قياسياً . وبطريق الاستدلال تبين العلاقات الضرورية الثابتة التي تشتق من طبيعة الأشياء والأسباب الطبيعية المستمرة . إن القاضي يغتصب دور المشرع لأن المحكمة هي التي تكشف الحق وتؤيده .

وما يُبرز دور المحاكم في تطبيق العادة هو التشابه المدهش الذي يوجد بين الاختصاصات القضائية والمناطق الخاضعة لنفس العادات .

* * *

وهكذا ليس قدم العادة ، كما يزعمون ، هو الذي يعطيها صفتها الإجبارية . فإذا سلمنا بهذا التفسير فيجب الإستنتاج بأن العادة المقررة لا يمكن أن تتغير . ولكننا نلاحظ أنها تتطور ، ومع ذلك كيف نفسر ذلك القدم ؟ إذا نحن استبعدنا الصعوبة قائلين لا نحلها . فعند نشأتها كانت العادة ، بلا شك ، حديثة العهد وكان لا يمكنها أن تتذرع بقدم العهد لتحمل الناس على احترامها . هناك من يقول أنه يكفي وجود سابقة لإيجاد القاعدة ؟ ولكن في هذه الحالة يكون أول عمل للرجل الأول قد وضع قانوناً حاسماً لخلفه من بعده !

إن التقليد ، مهما كان قديماً ، لا يمكن أن يتحول إلى حق ما لم يكن فيما مضى حقاً . ولذلك فإن الأساس يوجد في الاتفاق المعقود بين المطالب المتناقضة التي يبديها المتعاقدون المتضامنون الذين يضطرون إلى التفاهم والاتفاق بدافع ضروريات الحياة المشتركة . فإذا كانت العادة ، عند نشأتها ، غير ثابتة ، وإذا كان وقت تكوينها لا يمكن تحديده بالضبط ، فذلك يرجع الى وجود عهد غامض لمنازعات تمّ حلها بأساليب متنوعة مختلفة ، قبل وجود عهد التعاون الوثيق الذي يتقرر بمرور الوقت عندما ظهرت بالخبرة نتيجة الوسيلة المثلى للتوفيق بين المصالح المتعارضة مع كونها متضامنة في حدود القوات التي تسندها وتحت الضغط العام الذي يدفعها الى الاتفاق بل وعند الحاجة يضطرها إليه بتحكيم النزاع . إن تقليداً يعيد المدى يخولها سلطة ، ليست جوهرية ولكنها زائدة . فهي ، قبل كل شيء ، تبرز القاعدة وتحددها بقرارات متكررة . ثم تحمل على قبولها والعقود عليها بفعل الوقت بالذي يوفق بين مطالب جميع المتعاقدين والمتعاونين . ثم توجد الرغبة في السلم . فإن لتلك الرغبة مكانة خاصة : فقد دلّ الاختبار على أنها خير الوسائل لاحلال الهدنة محل الحرب . ففي العصور الوسطى كانت كلمتا السلم والعدالة مترادفتين . ومع ذلك عندما تتغير الظروف يشعر أعداء الأمس وشركاء اليوم ، بثورة حفيظتهم القديمة فيختبرون من جديد قوة خصومهم ومقاومة الوسط قبل الخضوع لقاعدة أو تعديلها ! ولكن استقرار العلاقات

من جهة ، والعادة الطويلة من جهة أخرى ، ثم الحاجة الى الثبات ، كل هذه العوامل لا تساعد على احداث انقلابات فجائية أو تعديلات كلية في الاتجاهات . وهكذا فان تطور العادة يكون غير محسوس ويتم بوسائل رقيقة .

إن أفضلية العادة على الاستعمال يرجع إلى استقرارها النسبي ، ووحدتها في مكان واحد من الدولة ، وإمكان التدليل على وجودها ان لم يكن تسهيل ذلك ، وموافقة سلطة اجتماعية عليها ، وفي النهاية معنى المصلحة العامة الذي يتجلى ولو بصفة غامضة ، ولكنها لا تخلو من المعائب : فهي متقلبة تبعاً للأماكن ، وكثيراً ما ينقصها الوضوح ، والتضامن الاجتماعي لا يجد فيها إلا معنىً مضطرباً ذلك لأن العادة من عمل النشاط المحلي الذي تعترف به وتقدسه سلطة قضائية غير مركزة .

* * *

عندما يتطور الجسم الاجتماعي يزداد تنسيق الأحزاب وتنظيمها، وتجد المصلحة العامة معناها في عضو يقوم على المعلومات والبيانات فيؤدي وظيفته الرئيسية ويشرف على جميع الحركات . ويدرك بحدة ثاقبة ما يتطلبه تضامن جميع الأجزاء وينظم نشاطها . إن الدماغ لا يؤلف وحدة الجسم ولكنه يعبر عنها . والسلطة المركزية تعبر كذلك عن الارادة العامة وتعطي شكل القانون للقواعد التي تمليها .

فليست السلطة عملاً مجهولاً مؤلفاً من سوابق جمعت ببطء ويتجه من المحسوس الى المجرد المعنوي ثم يتجلى بطبيعته لأنه نتيجة لعدة ارادات متجمعة إن القانون يتبع نظاماً عكسيًّا . فهو يظهر في شكل قواعد معنوية وضعت لادارة الوقائع المحسوسة الكامنة في معناها . انه مجموع اجراءات ثابتة متشابهة ونصوص واضحة جعل اصدارها في ميعاد محدد واقرارها واعتمادها من خصائص الهيئة المنظمة في الدولة . فمنشأه واقراره كامن في السلطة العمومية ومدته غير محدودة مبدئيًّا . ان القانون هو المعنى الواضح لارادة الدولة الموحدة والمركزة . فهو يمتاز إذن عن العادة بوضوحه ، وصفة الفردية ، وتعميم عباراته، وفي النهاية لأنه قائم على أساس تفكير طويل واختبارات ماضية ويحاول أن يتناول المستقبل . فهذه الصفات الثلاث المميزة للقانون تبين عمل السلطة المركزية التي تسيطر على أعضاء المجموع .

إن مقاومة القواعد الناشئة عن العادات لبعض التجديدات التشريعية هي — بالعكس — الدليل على قوة معارضة الأفراد أو الهيئات المحلية . إن هيدان نحق المترتب عن العادة فسيح قبل أن يستقيم المجموع وينظم . إلا أنه يلاحظ ، أولاً بأول ، عند تنظيم المجموع إن حصة التشريع تزداد وتطغى على الحق الناشيء عن العادة . فعندما يؤلف مجتمع فانه يختار رئيساً مهما كان هذا المجتمع خشناً . ثم انه يضع نظاماً . وقد ظلت القواعد القائمة على العادات مهملاً طويلاً نافذة المفعول بفضل كثرتها وأهميتها وطغت على النظم الصادرة عن السلطة العليا . ولكن حتى في عصور الاقطاعية — وهي العصور التي ازدهرت فيها العادة — كان الملك يصدر القوانين الرهبانية والمراسيم والقرارات . وقد رؤي في عصور الانحطاط والتخاذل مجموعة من التشريعات بذّت بكثرتها وعدم اتباعها في حين أن العادة والاستعمال قد تولدا في أشكال خلابة خادعة تحت ستار نظام هيئة متلاشية .

إذ أنه لا عمل للخطأ : فالقانون يتسلط أو يمتص العرف والعادة ولكنه لا يمحوها : فاذا ضعف بانحلال المجموع الاجتماعي ، أو سقط تحت ضغط المطامع القوية فان العادة والعرف يستعيدان حريتهما ويسيطران على الانسانية وهي انسانية في حالة تقهقر ورجعية . وبالعكس عندما يعد القانون تفوذه ، فاذا هو لم يطرد العادة باحتلال محلها ، فانه لا يتوانى في اخضاعها لنفوذه . [illegible] نافذة أو يضمها للآلة التشريعية بالاعتراف بها رسمياً .

ذلك أن القانون ليس في الواقع إلا شكلاً راقياً من العادة أو العرف المصطلح عليه ويقتبس من العادات مبدأ توازن القوات ويستعمله في تأييد سلطته . ومن العرف المصطلح عليه أصول التضامن يبرزها في وضع أوضح وأمتن لتوحيد النشاط الفردي وتوجيهه . اذ المشرع لا يوجد القانون ولكنه يشرحه . فالقانون أيضاً ليس إلا احد أشكال الاعمال الفردية . ولكن بينما تنشأ العادة والعرف المصطلح طوعاً ، فان القانون ينفذ عن طريق هيئة منظمة : جمعية وطنية ، أو مجلس نواب أو سلطة ملك مطلقة . وهو يطاع لتلك الصفات الأساسية وليس للنصوص الحتمية التي صيغ بها . وان سلطته تفرض مؤقتاً لأن المفروض أن تلك السلطة تضم في ذاتها جميع السلطات . إلا أن القانون لا يستطيع أن يقاوم الاخطاء

المتكررة . فهو يفتقد مزية هذه القرينة الملائمة . ولذلك فانه يعمل بحرص بضم هذا الشكل في النظام الاختياري الذي لا يخرج عن كونه عادة مقبولة طوعاً وبغير ما أكراه .

وخير من ذلك . فان القانون لا يكتفي بضم العادة اليه بل كان يستمر ظاهراً بطبقة من العادات بما تقدمه الشريعة التي تكون غالباً وأحياناً تعدل نص القانون مع احترام عباراته . ولكن النص الأصلي يحتفظ بمظهره واعتباره الخاص . فقبل إصداره كان موضع مناقشات ومداولات ، كثيراً ما تكون طويلة ، وأحياناً موضع مفاوضات جدية مضطردة ، وامتيازات لم يمكن التوفيق بينها ، والتوازن بين أجزائها ، إلا بعد جهد وعناء . بحيث أصبح كل تعديل فيها يتطلب تطبيقاً جديداً دقيقاً للمطالب المتنافسة التي يحسن إرجاء النظر فيها لأن الإعتراف بعدم كفايتها يثير أزمة لا يمكن معرفة مداها وأمدها ولا تقدير تأثيرها سلفاً . وقد استطاعت تلك العادات ، بفضل المثابرة الدقيقة ، إحتلال مكانة في القانون والتطبيق .

على أن حوادث الحياة ، التي لا ينضب معينها ، تحول ببطء وضع هذه المسألة . فالتفسير القديم كان يعمد الى تطبيق الوصف الخشن المجرد ذي المعاني المستترة الملتبسة لما هو حقيقي حتى لبعد من السذاجة ، محاولة التغلب عليها بواسطة القرارات البشرية . إن تطور الوقائع يؤدي حتماً إلى تطبيق جديد يحيد عن إرادة المشرع الأصلية . كما أن القانون لا يمكن أن يتبع هذه الحركة المستمرة إلا بتدخله تدخلاً متقطعاً وأحياناً مع كثير من التردد والرهبة . ويستحسن كثيراً تفادي تغيير صيغة القانون التي يقوم عليها تشريع بأكمله ، إذ أن ذلك يؤدي الى زوالها معه بايجاد الشك في التفسير الجديد وهكذا يحتفظ الحرف بفضيلته المتزايدة مع الزمن . إن الزي التشريعي الذي استند في البدء هي الدعامة الشرعية ، ينصرها بدوره ويحميها . وسوف نلاحظ مع ذلك أن الشريعة تخصص ، مع إيضاحها وتنقيحها ، عادة تقدمته وقامت تحت ضغط ضرورة التطبيق الملحة . وليس في ذلك ما يدهشنا لأن النزاع يتقدم الحكم . وفي النظام التاريخي يتقدم الحكم القانون . إن القانون يكون دائماً متأخراً على الحياة التي تأبى أن تكون حبيسة الصيغ ، بعكس الرأي العام الدارج الذي يدهش من أن تطبيق الحق يمكن أن يؤدي إلى مثل تلك المناقشات الطويلة . لقد ظالما أخطأ كثيرون من العبارة ، بل ونابليون نفسه الذي أدهشه أن قانونه المدني لم يحل

دون نمو الشريعة وانتشارها ، فحكم على عمله بالنقص .

لقد أعلنا : أن القانون بكافة أشكاله أسمى من جميع أشكال الحق فهي تتمتع بفضيلة قانونية . إن الإرادة الوجدانية التي تشيده تكتشف بالدراسة والتفكير ، الروابط التي تربط الأشياء بعضها . أنها تشعر بتبعيته ، وبعد أن تجتمع في عملها الوحدة والوضوح المذين ميزتهما في الواقع ، تجمع بين الاستعمال والعادات ، بل والقوانين الجزئية القائمة داخل إطار منظم الأجزاء بالتناطيع وترفق بينها .

* * *

ولكن على الرغم من المظاهر فانه لا توجد معارضة كلية بين العادة والقانون . لأن القانون مجرد ومطابق للعقل بغير شك ، ولكنه يتولد في وسط الظروف التاريخية . وسقوط الحق الشرعي يتولد من الوقائع المحسوسة والاختيارية التي تتخذ أطرافها من ثنايا الصيغة العامة التي تغطيها . ان جميع القوانين وليدة الظروف .

إن العادة تلخص الوقائع الكاملة ، ولكن إذا أراد القانون أن يسيطر على المستقبل ، فانه لا يستطيع الوصول إلى غايته إلا بالاستعانة بالماضي الذي يضمه .

إن القانون حامل مساواة . ولكنه لا يستطيع ، بدون إنكار الحقيقة ومعارضته الواقع ، إهمال الإختلافات وعدم المساواة الطبيعية . فهو يشتمل على شواذ ونصوص خاصة .

إن مدة القانون غير محدودة مبدئيا ولا يبطل إلا بإجراء خاص ومعارض ، ولكن هل يوجد في قانون صبت عليه السنين وأهمل ، من التأثير أكثر مما في عادة نسخت وتلاشت ؟

إن العادة تتكون ببطء وتسير بخطى متثاقلة مترددة ، أما القانون الذي يسير مباشرة نحو غايته فانه يخضع لتطورات التقهقر والتقدم التي تتلافاها العادة .

إن القانون غير مستقر إلا في الظاهر : وهو كالعادة يتطور تحت تأثير الأخلاق المحيطة به .

إن العادة لا تصبح ضرورية إلا بموافقة وتسليم الذين يخضعون لها . ولكن القانون لا يستطيع ، بدون أن يكون موضع إزدراء واحتقار ، أن يحتك بالشعور العام ورأي الأغلبية ، والاكراه لا يمكن أن يقع إلا بصفة استثنائية .

إن العادة عبارة عن ملك تحكيم عملي وعرفي للإنانيات المتعارضة ، والقانون ملك تحكيم مقصود للمصالح المتعارضة ولكنها مشتركة .

إن الحق من عمل السلطة في شكل الاستعمال أو العرف أو القانون . والسلطات المنقسمة والمتعارضة هي التي تولد الاستعمال : إن العادة تنشأ عن سلطة غير مركزة ، والسلطة الوحدانية المركزة هي التي تضع القانون وتنشره .

ولكن الحق لا يستمد فضيلته بأكملها من القوة ، فهو يستمدها أيضاً من العقل . إن السلطة لا تستطيع أن تقرّر قواعد هوائية أو جنونية دون أن تعرض نفسها للتحطيم . فكيف يتعاون العقل والسلطة على ذلك ؟ ذلك أن نقطة ارتكاز القوات هي كذلك نقطة التقاء جميع البيانات . في المكان الذي تلتحم فيه جميع القوات وتتضافر تنجلي حتماً جميع التقديرات التي تلحق بها ، وبالتالي جميع الحوادث التي تؤثر عليها . وهكذا تقيد الوقائع بالتعديلات التي تدخل على التوازن الذي يعبر عن علاقة القوات والمقاومات التي يثيرها تدخلها . عند ما تكف القوات — التي يتولد الحق من التقائها — من الاصطدام ببعضها وتوافق على تحقيق اتفاق دائم بينها ، وعندما يوجد إختلاطها السلمي ببعضها ويجعل من إشتراك مصالحها اشتراكاً في الشعور والتفكير فلا يقتصر تأثيرها على تعميم الحوادث الداخلية والخارجية بين المجموع ، ولكنه يتجلى بتركيز جميع المدارك والمقارنات التي تستخلص ، والاختبارات التي تجمع ، والفكرة التي تضيء وترشد الارادة التي تخلصت من الغريزة . ان جميع الوقائع المتعددة غير المنتظمة الغامضة ، وجميع المقاومات المحلية التي يتألف منها الإستعمال والعادة تصبح واضحة جلية وتستولي عليها السلطة وتنظمها . فلولا الذكاء لأمكن تقييد للقوة الغاشمة المختلطة بسرعة وشل حركتها . إن النفوذ والمبرمة والارادة تكون السلطة وليس أحد هذه العناصر أقل منفعة من الاثنين الآخرين .

ان الكفاءة والاستعداد في استخلاص القانون وفي نفس الوقت القوة في حمل الناس على احترامه لم تكن في المجتمعات القديمة ، معلومة لرجال منعزلين أو مجتمعين بهيئة مدرسة ، بل ولا لجمعية الشعب الوطنية . ولكنها كانت من اختصاص الألوهية وحدها إذ أن الحق كان ، في المجتمعات الأولى ، من أصل ومن طبيعة دينية . فهي منقولة من الخطة الدينية الملائمة

لمقتضيات الحياة في كل مجتمع بشري ومستلزماته التي نشأت عفواً عن الاختيار . إن العادة أو القانون بصفة مقدسة وبس يخرقهما يكون بوصفة الحق الالهي . ثم ظهرت الملكية المطلقة التي انتهت فيها جميع السلطات . ولكن الملك ليس ، كما يتخيله ، عدو الشعب الذي يحكمه بالارهاب . إذا كان قد ارتضى به فلان وجوده وعمله يعودان بالخير على المجموع ، ولان ادارة زعيم تبدو أفضل وأنسب من الفوضى التي تأتي الضعف بين أحضان القوي . والزعيم اذ يتبوأ مكانه على رأسهم ، يمتاز عن جموع أتباعه بسلسلة من النظم متعددة الحلقات ولكنه يجمع أطرافها بين يديه ولذلك فانه أول من يتبين العقبات التي تعترض سيرهم كما إنه يشعر بضغطهم عليه وميلهم له نحو الاتجاه الذي يندفعون اليه . فهو المحور الذي تلتقي عنده جميع البيانات التي ترد من جميع الجهات . ولذلك فهو خير من يستطيع أن يهدي التطبيع الذي يحرصه إلى السبيل القويم ، وأفضل من يوقع العقاب على من يخرجون عليه . على أن تلك الطريقة التي تتبع في جمع الاستعلامات لا تخلو من العيب لأن جميع هذه الاستعلامات ترد عليه من موظفيه وأتباعه الذين يستمدون سلطتهم من الزعيم . وهذا ما يحمل الاتباع أحياناً على الحذر منهم وخشيتهم ، وأحياناً لا يحمل هؤلاء الموظفين العظام إلا الملقائق المنمقة والرياء والأخبار السارة إذا كانوا مسالمين إما إذا كانوا متمردين فانهم يندفعون مع تيار شعورهم ويرتكزون على مرؤوسيهم لمقاومة السلطة الرئيسية ويعاملونها معاملة الند للند في كثير من الاستقلال .

وانه لا يمكن تقدير حاجات الأهالي وميولهم وإرضائها إلا إذا انتخب نوابهم منهم وتولى هؤلاء مهمة القيام بالوظائف التشريعية . فانهم يعملون بمساعدة الشعب وقوته التي لا تقوم الحكومات ولا تدوم إلا بفضلها مع تعضيد جميع المندوبين المنتمين إلى مختلف فئات المجتمع . وهكذا يستنير الرأي العام بأكمله ويقف على ما هو عليه من وحدة الرأي وما ينتابه من منازعات حزبية وما يعتز به من قوة يستمدها من تضافر عناصره واعتداله الذي يعاون على اتحاد المصالح المختلفة .

ان القانون لا يجد في سبيله العادة والعرف فقط ، ولكنه يصطدم كذلك بالتعاقد .

فالارادات المتفرقة لظاهرة تواجه الارادات المشتركة . فكيف يجوز هذا الشكل ؟ فهل ينبغي أن يتنازل الأفراد عن حقهم في عقد اتفاقات خاصة اذا ما اندمجوا في المجتمع ؟ ان مثل هذا التنازل غير مفروض في المجتمعات المرنة الفردية التي لا تتطلب إلا ناحية واحدة من جهود الرجل : كالمجتمعات الأدبية والعلمية والرياضية والتجارية . أما المجتمعات الكلية الثابتة كالقبيلة والمدينة أو الدولة فهل تترك للأشخاص حق التعاقد باتفاقات خاصة ؟

إن المجتمعات الأولى التي يمكننا الرجوع اليها هي — كما أسلفنا — شديدة الضغط والغيرة . وهي تعيش أبداً على أهبة الحرب . وهي أشبه بمعسكرات منشأة تنظيماً تاماً والحرية الفردية تكاد تكون معدومة فيها . فالأفراد متسلسلون من أرومة واحدة ومرتبطون برابطة الدم بقدر ارتباطهم برواسط المصلحة ، وامتزاجهم ببعضهم قد بلغ أقصى حدّ حتى لكأنهم لا يتمتعون بحياة فردية ذاتية . لأن الرابطة الطبيعية التي تجمع بين أعضاء المجموع تتخذ صبغة عائلية : وهي في نفس الوقت سياسية واقتصادية . فبين أفراد الأسرة القديمة كان تبادل الأحياء والأسلحة أو جلود الماشية لا يتخذ صبغة أكثر من صبغة التعاقد الذي يتجلى في عهدنا عند تبادل اللعب بين أطفال أسرة واحدة . والمنازعات التي تنشأ عن ذلك كانت تسوى ، لا على أساس اعتبار الحقوق الفردية لكل واحد ، ولكن بروح المودة والتضامن العائلي .

على ان نظام الحكم المستقر الدائم لا بدّ أن يطغى على نظام الأسرة فيزيله رويداً رويداً ويحدث تفككاً في نظام الأحزاب والمدينة فيضعف من شوكته . أما الأخطار الخارجية فانها أقل تهديداً . والقيود التي تربط الفرد بوطنه والملكية الفردية التي أصبحت من ضروريات الحياة بفضل تطور أساليب الزراعة وتقدمها ، لا بدّ أيضاً أن تخلق مصالح متباينة . وروابط قانون الأحوال الشخصية الذي يحدد المكان الذي يشغله الفرد في دائرة قبيلته، لا بدّ أن تلين تحت تأثير نمو الحياة الاجتماعية المركبة وتخصيص الوظائف . وهكذا يمكن أن تنشأ العلاقات في المعاملات . ولما كانت شخصية أعضاء الاتحاد تختلف عن شخصية الجماعة فانها تسمح بالتعاقد والارتباط فيما بينهم الى حدّ ما . ويخلق نظام التعاقد نظام الأحوال الشخصية .

فحركة عتق الانسان البشري وتحريره من ربق العبودية الذي يليه حق الارتباط والتعاقد لا تتم إلاّ رويداً رويداً . فالعقد عند ظهوره في مجتمع لا يحمل إلاّ أثراً ضئيلاً من استقلال المتعاقدين . وهو لا يسمح بأي شيء يتجاوز إلاّ بتنفيذ أعمال مركبة تعبر خلفها سلسلة لا تنجزأ من التعهدات التي لا يمكن التفصيل بينها ويجب قبولها أو رفضها كتلة واحدة : فالاتحاد بالدم خلقة رمزية توجد نوعاً من التبني في الأسرة أو التجنس في القبيلة . والزواج الذي ينقل المرأة من أسرة الى أخرى ، هي أول أنواع العقود . وهي عقود كثيرة التكلف خلافة لتعهدات عامة محددة بواسطة قانون العادات ، ولا يتعين على الأطراف المتعاقدين أن يعدوها أو يضيفوها وهي توجد تقريباً كلياً للحالة . والمنتمي ينزع عنه كل قديم ويتبع جميع الروابط السابقة ليرضى بغيرها تختلف عنها اختلافاً بيناً . هذا شكل خشن للإتفاقات التي يمكن بفضلها إجراء تعاقدات بين القبائل أو اجراء مبادلات . عند ما يعطي رئيس القبيلة إبنه زوجاً لابنة خصمه الذي قتل له إبنه فانه يصلح الضرر الذي أحدثه . وفي نفس الوقت يوقع معاهدة صلح وتحالف . وفي أيامنا أيضاً نرى أن الاتحاد بين الأمراء والأميرات من الأسر المالكة لا يقوم في الغالب إلاّ على أسباب دولية . وتدخل المجتمع في مثل هذا النوع من التعاقد قد يكون أجدى له وأنفع من تدخل المشتركين المباشرين . وهذا التدخل — بادخاله العقد الحر في عصبة الروابط العائلية والتابعية — هو الذي يحلّيه بتأثيره وفاعليته .

ومع ذلك فان العقد لا يلبث أن يتفرد ويتخصص ويتحرر . والأشخاص المرتبطون بهذا العقد وحدهم هم الذين يتعاقدون ، والتزاماتهم تنحصر في الأغراض التي أبدوا رغبتهم في أن يتضمنها اتفاقهم . ثم أن المتعاقدين يتحررون روياً رويداً من النظام الاضطهادي الذي كان يقيد إرادتهم ويحول بينهم وبين كل تصرف ذاتي وكل حرية في تقرير رغباتهم وتنفيذ إرادتهم .

ومع ذلك فتلك العقود ظلت حافظة لمظهر العقود الاجتماعية عهداً طويلاً . فهي قطع منتزعة من كتلة المعاملات القانونية . والإرادة الفردية تلتصق إليها خلسة لتنتفع من الصفة الإجبارية المعترف بها فقط في القواعد الاجتماعية . إن العقود العادية والعقود

الفعلية تستمد قوتها من الصفة الدينية أو الحالة الراهنة الأكثر منها من إرادة المتعاقدين . إن التشريع الرمزي والتكليف القامي اللذين يمنحان العقود الأصلية لها من مخلفات أو من آثار تدخل المجتمع في وضع صيغة العقد . إن القوة الإجبارية كامنة ، لا في إرادة المتعاقدين ، ولكن في فضيلة الصيغة الحرفية أو المظهر الرمزي للأصل الاجتماعي والديني الذي يتحتم عدم تحريف أية كلمة أو استبدال أية إشارة لئلا يعتبر العقد لاغياً . إن اتفاق الارادة ظل لعهد بعيد في القانون الروماني غير كاف لإيجاد الالتزام . وقد اكتشفوا في المعاهد القديمة ، القبائل المقيمة في شمال غرب أمريكا ، أطوار انحلال قانون العادات وتكوين حالة التعاقد الشرطي الذي إذا قيد ضمن الاحتفالات الدينية ، يستسلم للمستقبل ويضع الرابطة التي عقدت بحرية تحت رعاية السلطة الدينية والاجتماعية . وإنا لنجد في تلك المخلفات الدينية آثار معارضة وخصومة سابقة يخال أنها تكشف عن أصل منشأ التعاقد .

إذا لو أن التعاقد ، في المجتمعات البسيطة البادية ، لم يمكن أن ينشأ إلا عن انحلال الرابطة القانونية انحلالاً تدريجياً ، فان تعاقد الارادات قد اندمج بحركة عكسية بقانون المجتمعات المركبة الداخلي ، وربما أيضاً في أشد المجتمعات خشونة في عهد وجودها . يقول سبنسر : كان يوجد في البدء مجتمع رجال ونساء بغير أوضاع محدودة . ولما كانت أوضاع هذا المجتمع تقررت وقامت على القوة فانها كذلك كانت تتغير بمشيئة الأقوى ورغبته . كان التعاقد في البدء حراً ولكنه خالٍ من كل عقوبة رادعة . في تلك المجتمعات كان يتم ، متى شاء الفريقان ، ولكنه لا ينفذ عادة إلا في الحال . ففي حالة التعاقد الخاص يكون التنفيذ بطريق البدل ، وفي حالة التعاقد العام فان المعاهدة هي التي تسوي أوجه الخصومة بين الأعداء سواء بتوجيه اليمين أو بتعاقد طويل الأمد يراعى فيه التغييرات السابقة لعلاقة القوات المتخاصمة . وهذه التعاقدات ، التي لا ترتكز إلا على المصالح الحالية المحدودة لمن يعقدونها ، هشاشة خيالية . وضعفها هو نتيجة استقلال المتعاقدين ولا يمكن مداواته إلا بضمها الى نظام واحد تهيمن السلطة الرئيسية فيه على جميع المتعاقدين اليه ، وتفض مشاكلهم ومنازعاتهم وتخلع على اتفاقاتهم معاونة المجتمع وما له من سلطة التنفيذ والاكراه . فاذا كان للتعاقد سلطة ربط المتعاقدين فان المجتمع هو الذي يمده بتلك السلطة . فاذا فرضنا أن المجتمع

لا يقرر عقوبة على الالتزامات المتعاقد عليها فتلك الالتزامات تظل مجرد وعود بسيطة مادية .

***

ان الحرية الفردية ، سواء نشأت من تراخي الرباط الاجتماعي أو تخلفت عن حركة تحالف الوحدات التي كانت عند نشأتها مستقلة ، تتجلى أولاً وخصوصاً في النظام الاقتصادي . وتتجلى المادة فيها بالاعتراف بالملكية الفردية . اذ أنه يستحيل في الواقع ، مع انتشار المجتمع المطرد ، الجمع بين الانتاج وتوزيع الثروات . والاستغلال الاجماعي يصبح عقيماً عند ما يتناول مساحة كبيرة من الأرض ومجموعة من الموارد المختلفة . ان تنظيم الجهود يتطلب كثيراً من بعد النظر والاحتراس ومعرفة تامة للضروريات والوسائل وفناً دقيقاً في تطبيق كل منهما على الأخرى ، وبالاجمال يستدعي ذكاء وقاداً في خدمة ارادة حديدية لا تنزعزع وجميع الفضائل التي يندر توافرها عند المتمدينين ، فكيف بها عند من هم على الفطرة . ان الحاجة اذن تستلزم من كل جماعة تتكون وتنمو أن تترك لكل فرد منها عناية السعي وراء ما يتطلبه كيانه وكيان ذويه . وزيادة على ذلك فان انتشار المجتمع يضعف روابط المودة والمحبة التي قلّ أن تكون بعيدة المدى أو تتجاوز دائرة القرابة . فاذا كان أولاد أسرة واحدة لا يثيرون الصعاب في وقف عنايتهم وجهودهم على المجموع المشترك ويسمحون لجميع الأفراد في الانتفاع بها بمقدار حاجتهم فان الأمر يتغير عند ما تنتشر الأسرة وتندمج في العشيرة ، وسبب أقوى عند ما يتألف المجموع من اندماج أسر من دم غريب ببعضها لأن الانتاج يصير فسيحاً ومركباً ليكون اجماعياً ويصبح فردياً . ويصير هاماً جداً ليمكن توزيعه بالأخاء بين عدد كبير من المشتركين الذين يتنافرون ولا يهتم بعضهم ببعض لأن الكتلة المشتركة لا يمكن المحافظة عليها بالقسمة والتوزيع .

وفي النهاية فان تقسيم العمل يسمح بتمييز حصة كل واحد في العمل الذي تمّ وفصّل انتاج الجهود المختلفة ، وتحديد ربح العمل لكل من قام به . وبالعكس فان الملكية الفردية تساعد على تخصيص الوظائف عند ما يثق الرجل بأنه سينال ثمرة عمله بأكمله وانه سيتصرف فيها بكل حريته فانه لا يقاوم التيار الذي يدفعه نحو تقسيم العمل لأن البدل يسمح له بالحصول

على الترضيات التي تسمح اليها . وأكثر من ذلك فان الناس يمتد الى ما وراء الأشياء المادية والارشادات التي تأتي عليها . إنه يوجد تقارب وتوازن بين تقسيم العمل والملكية إلى حدّ أن الوظيفة تصبح ملكية فردية ويصبح المعلم مالكاً للكرسي الذي يدرس فيه ، والضابط مالكاً لرتبته ، والكاتب مالكاً لمؤلفه والمخترع مالكاً لاكتشافه . إن حماية المجتمع تسمح للرجل بأن يجني ثمار نشاطه بأكمله . وفي ذلك تخلق ـ مع استثناء المنفعة الاقتصادية للعمل الفني والاداري ـ ملكيات من نوع جديد لا توجد إلاّ في مجتمع منظم .

فالملكية تصحح نوعاً من امتداد الشخصية وسيطرة الفرد على الأشياء . وبذلك يصبح تنفيذ التعاقد أكثر ضماناً إذ يضاف إلى الاكراه البدني ، الذي يمكن التأثير به على الشخص ، العمل المادي ، وهو أنسب وأنجع ، على الأشياء المملوكة . ان المال الموروث يكفل تنفيذ التعهدات المتعاقد عليها . وهكذا فان العقوبات المفروضة في حالات الاغتصاب ترد الأشياء المغتصبة تحل محل العقوبات المفروضة في حالات القمع ، وفي حالات الاضرار المادي توجد تعويضاً أكثر ملاءمة وأنسب عن الضرر الواقع .

أما في النظام السياسي فان الأمر على نقيض ذلك فان الحرية تظل مقيدة نوعاً ما . ان حالة الأشخاص ونظام الأسرة ، والمدنية ، والدولة تظل محدودة بدقة متناهية وادارة المصالح العامة خاضعة للقانون الذي لا يمكن التجاوز عنه أو التخلص منه . فاذا تجاوزت الدولة عن حقها في ملكية الأشياء فانها لن تتنازل عن سلطتها وسلطانها على الأشخاص . إن التركيز — وان كان ضرورياً لمقاومة العدو الخارجي أو لضمان حفظ النظام الداخلي — فانه يتطلب الطاعة لقواعد معينة متشابهة . لقد أبدى هربرت سبنسر — في مقارنة مشهورة له بين الشركات القديمة من النوع العسكري والشركات الحديثة من الطراز الصناعي — إن العقد صرف يحل تدريجياً محل القانون لتحقيق نظام ذاتي في المجتمعات البشرية لأن الأولى تمتاز بالرابطة القانونية أو الشرعية ، والثانية تمتاز برباط التعاقد . على أنه يُخشى ألاّ يستمر التطور في سيره المنتظم في هذا الاتجاه ، إذ أنه اذا أمكن لأي امرء أن يتصور امكان وجود حالة سلم عامة مستديمة تضع حداً للمنازعات الحربية فانه لا يستطيع أن يتصور عدم وجود سلطة مركزية ولو لمجرد المحافظة على احترام العقود .

وزيادة على ذلك فانه لا يوجد تفريق مطلق بين النظام السياسي والنظام الاقتصادي . فاذا كانت الحرية الفردية — على الأساس الاقتصادي — تجد مثالاً أصح ، فليس أصح من أنه يوجد نوع من تبادل المصالح المادية في كل مجتمع ، ولنظام حماية الضرائب خير دليل على ذلك . ولا بدَّ لنا من الاعتراف — بغير ما حاجة إلى الوقوع في مغالاة المذهب الماركسي أو مذهب الماديين التاريخي — بشدة تأثير الشروط المادية للوجود على اختصاصات السيادة . إن تبعيتها تلاحظ بوضوح وجلاء في النظام الاقطاعي الذي يمتاز باندماج الملكية والسيادة وتقسيمهما في وقت واحد ، في حين أن هذه الملكية وتلك السلطة منفصلتان وإن كانتا كامنتين في الدولة الرومانية وفي الدولة الحديثة . على أنه يتبين من ذلك المثل ان كتلة العلاقات السياسية والعلاقات الاقتصادية يمكن تقسيمها حسب خطوط القسمة ، وان اتخذت تلك الخطوط اتجاهات متباينة . ولا يجب أن نتغاضى عن أن الدولة — بالحالة التي تفهمها اليوم — ليست سوى مظهراً خاصّاً من مختلف الأوضاع السياسية .

إن الحرية الاقتصادية ليست غير محدودة حتى في أيامنا . فانها — بادىء ذي بدء — تصاب بصدمات عند ما تدعو حالة الحرب ضد الغريب الى الاستيلاء ، لا على الأشخاص فحسب ، بل على الموارد بجميع أنواعها . وعند ما تندمج جميع الهيئات المدنية فلا تؤلف إلاَّ مصلحة واحدة قصرت مهمتها ومواردها على تغذية القتال . على أن حرية التعهد خاضعة بوجه خاص لقيود وتحفظات عديدة حتى في الأوقات العادية . فاذا كان الرجل في الواقع حرّاً في اختيار هذا النوع من التعهد أو ذاك ، فانه ليس حرّاً في عدم التعاقد . إذ أنه لا يوجد في أيامنا من يستطيع أن يستغني عن غيره ويقوم بأود نفسه ويجب عليه أن يتشبه بالنائم الذي يستيقظ خلال حلم مزعج وان يتغنى بقول الشاعر سولي بريدوم :

« لقد مرت صعادتي وفي الحياة التي نحن فيها »

« لا يوجد من ينظر بأنه يستطيع أن يتجاوز عن الرجال »

ان علاقاتنا بأمثالنا تكاد تكون عقوداً بوجه الاجمال ، وأقل حركة من حركاتنا تتم عقداً قانونيّاً غير منظور . فشراء صحيفة يعتبر عقد شراء ، وتذكرة الترام تدل على تنفيذ عقد نقل ، وماسح الأحذية ينفذ صفقته على طريقته . فهل يمكن أن يسبق المعاهدات المتعددة

— التي يُصادَق عليها في أغلب الأحيان بغير تفكير — حادثات وافية تفصيلية للاشتراطات التي تطبق في جميع القروض ؟ وهل لا يخضع المسافر الذي يتبع مقعده في القطار لمدة التزامات متبادلة مع الالتزامات التي تتحملها الشركة نحوه ؟ ففي حالة وقوع حادث يلجأ المجموع الى التشريع المدني لتحديد المسؤوليات وليس الى الاتفاق العابر الذي عقد فيما بينهم . فهناك مجموعة من القواعد المدونة في القوانين — وان كانت تفسيرية — إلا أنه لا يمكن تعديلها أو اقصاؤها في عقد دعت الظروف أن يكون موجزاً أو أن يتم في أغلب الأحيان بروح السرعة . ان مواد القانون — عند تفسيرها رغبة المتعاقدين — تستمد وحي هذا التفسير من المبادىء الملائمة للمصلحة العامة . ان العقد محدود وتحت سيطرة القانون وهناك نظام عام تحرمه — في بعض الحالات — باعتبار أنه مخل بالأخلاق أو محرم . ولذلك تتخذ الاحتياطات اللازمة لمنع كل اسراف وحماية الضعفاء والعجزة .

ان التدخل الاجتماعي يظهر من الاهتمام في إيجاد المساواة بين العهود المتبادلة ، والتوازن بين قيمتها . فالمجتمع هو الذي يعطي لكل ما له قيمة صفة موضوعية ونوعاً من التحديد . ان تعادل هيئين بالنسبة للرجل الأعزل أمرٌ وقتي غير مستقر . لأن تغيير رغبته وتبدل الظروف تجعل هذا التعادل يتحول بسرعة ، فنقطة الماء التي لا تقدر بثمن في الصحراء لا قيمة لها اطلاقاً اذا هي امتزجت بأمواج نهر عظيم . أما في المجتمع فان قيمة الشيء تتخذ معنىً خارجياً وتتعلق بالأشياء : فعدد المستهلكين الكبير وانتظام الانتاج يسمحان بوضع نظام يحدد سعر البضائع . تلك الملاحظة لا تنطبق فقط على المحاصيل الزراعية أو المنتجات الصناعية . إذ قلّ أن توجد ممتلكات عينية أو غير عينية لا يحدد لها المتنافسون درجة في ميزان الأثمان . إن جاذبية الرغبة وصعوبة ارضائها لا يعتبران العاملين الوحيدين المميزين لقيمة الشيء ، فوجود بني جنسنا يخلع على تلك القيمة نوعاً من الوجود مستقلاً عن مشاعرنا الشخصية ، ويجعل منها مبدأ مشتركاً يتجاوز الوقت والمكان ويمتد بسرعة ويطغى على المستقبل وهكذا تصبح القيمة قابلة للقسمة والتشبيه ، والمعادلة في المبادلات لن تعتبر تقديراً نفسياً وشخصياً . ان مجرد الانتماء الى جماعة من الرجال تحدد فيما بينهم قيمة الأشياء بالمساواة بين الجميع ، ويسمح للضعفاء أو من هم من أمرهم على محل أن يقاوموا أشد الناس

قوة وبطشاً ، وأوسعهم ثراء وينتفعوا بالسعر المفروض .

ولكن اذا أعطي جماعة من الرجال ، يسود بينهم التعاون ، صفة الاستمرار والديمومة ، فان نظام هذه الشركة يغير المبدأ الأساسي . وفي هذه الحالة لا يكون تسابق المتنافسين أو معارضة مصالح المتبادلين هو الذي يحدد وحده سعر الأشياء ، فالفائدة الاجتماعية التي تنجم عن أداء الواجب تشترك أيضاً في هذا العمل . وانه ليجدر بنا ألاّ ننسى في الواقع أن المنافسة تؤدي الى نوع من توزيع العمل لا يختلف من حدة النزاع فقط ولكنه يخلق قيمة مشتركة لمختلف الطبقات الاجتماعية أو لمختلف طبقات المهن . إن قيمة الأشياء الناتجة أو الخدمات المؤداة تقاس بما يحتاج إليه المجموع من كل فرد من أعضائه . وأهمية دور هؤلاء الأعضاء هو الذي يحدد قيمة نشاطهم ويفصل التضامن الذي يقرر بين المتعاملين ، فيشترك هؤلاء جميعاً ، وبدوجات مختلفة ، في القيمة القصوى التي ينسبها المجموع الى كيانه الذاتي ونموه . وبناء على ذلك بماذا تقاس قيمة الخدمات التي يؤديها الموظفون — وهي تكاد تكون بعيدة كل البعد عن المنافسة بقدر ما هي بعيدة عن قانون العرض والطلب — إن لم يكن بفائدة الدور الذي يمثلونه في المجتمع ؟ وزيادة على ذلك كيف يتسنى للاخصائيين من أرباب المهن — الذين يقدرون أنهم مغبونون — أن يُشعروا غيرهم بقيمة نشاطهم ان لم يكن عن طريق الاعتصاب ، فهو الوسيلة التي يتخذونها للدلالة — بطريق الامتناع — على فائدة عملهم أو ضرورته ؟ ان الاعتصاب شكل خاص من الحرب الأهلية وهو لا يمتاز بتجنيد قوة للتخريب ولكنه يمتاز بتعطيل قوة تستطيع أن تؤدي خدمات معينة . فهو الدليل اذن على التضامن .

فهذان المظهران لمبدأ القيمة يطابقان مبدأ التمييز البين الذي وضع في العصور الاولى بين « السعر للأخ والسعر للغريب » . فالأول حددته العادات والثاني وضعته المنافسة .

ان المجتمع لا يقتصر بفضل وجوده على اقامة المساواة بين المتعاقدين . فانه يتدخل مباشرةً في الاتفاقات ليضمن تنفيذها بالعدل . اذ أنه من مصلحته ألاّ يختل نظام ادارة أعضائه مما يتطلب تدخل الوسطاء تدخلاً يتعارض ولا يتفق مع توزيع المنتجات والخدمات

توزيعاً طبيعيًّا . فاذا استعانت شخصيات بارزة بقوتها الطبيعية أو المعاية أو الاقتصادية وسلبت من بعض الطبقات جزءًا من ربح عملها ، فان نشاط هذه الطبقات يتحول عن الاستمرار في ذلك العمل ويتحولون به ، في حين أن سلامة مجموع الاعضاء يستلزم وجود العدد الكافي من الكفاءات للقيام بذلك العمل وتنفيذه . ان تلك المساعدة توجد في العادة من تلقاء نفسها ولكن عندما يتعقد المجتمع ويتخصص فانه يسهر باحتراس على كل نوع من أنواع العمل ويبعد عنه كل سبب من أسباب الاضطراب والقلق . ان كثرة العلاقات والتعاقدات ، وضيق الشبكة التي تحيكها حول الأفراد تدل على أنها احدى الأوضاع المفضلة للتعاون على العمل . وازدياد أهميتها لا يسمح بالتخلي عنها ، فاذا كانت المجتمعات الأولى — كتلك التي جاءها موسى بشريعته — لا تملك أي تحديد مشروع للتعاقد فان المجتمعات المتمدينة لا تألو جهداً في اصلاح ما فيها من اسراف وافراط .

ان العنف والتدليس والغش والتزوير تفسد الاتفاق بأن تضع أحد المتعاقدين في شركة في مكانة محتقرة فيؤثر ذلك على مجموع الأعضاء وادارته ادارة منتظمة ولا يلبث أن يشعل الاضطراب في توزيع الموارد والأعمال . فاذا قلت قيمة الأشياء عن قيمة الخدمات التي أنتجتها فان التعاون يفقد تآلفه وتتعرض صحة الجسم الاجتماعي بسرعة لعناصر الداء . ولذلك يصبح تدخل المجتمع أمراً ضروريًّا حتى لا يكون هناك غير اعتبار واحد وهو القيمة الاجتماعية للخدمات المتبادلة . واذن لا يجب أن تؤثر صفة المتعاقدين ومكانتهم على عقد الاتفاق كما لا يجب أي يتدخل أي عامل خارجي ويضغط على الارادات . ان التشريع يحول دون استعمال القوة استعمالاً سيئاً كما يحول دون استعمال الغش والتدليس . وهو يعاقب عليها على الأقل في العهود الأخيرة من المدنية . لا شك في أن الأساليب التي كانت تستعمل في العصور القديمة كانت تشمل في ذاتها فضيلة اجبارية مستقلة عن الرغبات التي تعبر عنها . بل أن القانون الروماني القديم كان يعترف بصحة العقود القضائية المعقودة تحت ضغط الاكراه والتهديد . ولم يحكم التشريع الروماني ببطلان العقود التي يشوبها العنف أو التحايل الا بعد ذلك العهد بزمن طويل .

ان مجرد عدم المساواة في الوضع يزيل أحياناً كل حرية في التقرير . فعامل الامتياز بما

لديه من الاشتراطات التي يتحتم الخضوع لها ، والمنتفع الذي يستغل ظرفاً لم يُحسب في وجوده ويفرض أتعاباً باهظة ثمناً لخدماته ، وعامل المصنع الذي لا يحسن الدفاع عن مصلحته بالنسبة لسنه ، جميع أولئك يحتلون مكانة لا تتساوى فيها الاشتراطات وتدخل تحت اشراف القانون الذي يتدخل لإصلاح الغبن وتقويم ما في العقد من قسوة وظلم . بل ان مجرد الإيذاء البسيط قد يتطور في بعض الظروف ويصبح سبباً لالغاء العقد . وعدم تساوي النتائج يساعد على الأخذ بعدم تساوي المتعاقدين : وموافقة أحدهم تعتبر باطلة .

فالمجتمع — كلما تقدم — يرمي إلى أن يزيل من العقد كل عامل غير ملائم للمصلحة المشتركة المنصوص عنها في الاشتراطات المتبادلة . وكل قوة تستطيع أن تؤثر على موافقة الطرف الآخر — غير القوات التي تعطي للشيء الذي يتفق عليه قيمة جديدة — تقمع وتستبعد . فتلك الحركة تنفذ ضد مصلحة الاستقلال الذاتي الفردي إن البحث عن الغاية المشتركة لم يعد يصلح لأن يكون مبدأ وحيداً لتفسير العقد . فالتعاقد — بمجرد الموافقة عليه — يخرج من حيز الضمير الفردي ويدخل ضمن سلسلة العقود الاجتماعية التي تحيط به وتؤثر عليه . ان الحق الموضوعي الواقعي من أصل اجتماعي يضغط على حق الفرد الظاهري .

لقد طالما تفنوا بأن العقد أشبه بالآلة التي استعملها الرجل للحصول على حريته . على أن هذا التأكيد لا يخلو من بعض التحفظات . فإذا كان العقد يعرض على الرجل الاختيار بين مختلف الحلول ، فالقانون هو الذي يحمي تلك الحرية ضد تعسف الأقوى وتطرفه . وإذا كان القانون — في شكله الأصلي القديم لا يعرف غير الاكراه والعسف ، فإن العقد عند منشأه لم يكن يعترف للحرية إلاّ بقسط ضئيل . ولكن عندما حدد أحدهم الأمر وهذّبه أصبح اتحاد العقد باعتباره — عملاً فرديًّا — والقانون باعتباره عملاً اجتماعيًّا — خير ضمان للحرية . فإن هذا الاتحاد يوفق بين الحق الداخلي الذي يرتكز على سلسلة المراتب والوظائف وبين الحق الخارجي القائم على التوازن .

وإذن فالعقد هو عبارة عن نقطة التقاء حركتين متضادتين إحداهما ناتجة عن انحلال قانون الأحوال الشخصية ، والأخرى ناتجة عن اشتراك وحدات مستقلة . فالأولى تولد الحرية والثانية تحدّها . وهكذا فإن العقد يلعب دور المفصل الذي يصل بين الأجزاء الصلبة في

المعاملات القانونية . لاشك في أن العقد الخاضع لشروط حُرّة، ولكنه يخضع أيضاً لقواعد دقيقة معينة ، انه يقرب بين المجموعات الكثيفة التي لا يُفترض تطبيقها والتي تحتفظ الروابط التي تجمع بينها ، مرونتها . فهمته كعامل على إيجاد العلاقات الاختيارية البحتة أقل بكثير من مهمته كعامل على إيجاد نوع من التنوع في تطبيق القواعد العمومية تطبيقاً خاصاً .

ان الالتزام الشرطي يُعد حجراً في أساس قانون الدول المستقلة : فالالتزام الشرعي من مميزات الحق العضوي . وليس معنى ذلك أن مجال العقد يضيق في مجتمع منظم، بل الأمر على نقيض ذلك . ولكن القانون الذي يحميه ويحميه هو الذي يكتنفه ويستكشف خفاياه ، إنه يخضع له كما خضع الحق الناشيء عن العادات . فيتتبع هو بالوحدة التي يحققها ويشير على المجموع فضائله : سعته المنطقية ، وثباته ومرونته في الانسجام بالظروف الجديدة بفضل النشاط المستمر الذي يمتاز به العضو المشرع حيث تلتقي جميع القوات وتحتك ببعضها .

٥٥٥

ان الحق العضوي يمتاز امتيازاً بيّناً على الحق الآلي . إذ أنه ليس وليد احتكاك القوات المهملة المتروكة للصدفة التي لا تكفل بحيادها إلاّ طمأنينة غير مستقرة كما أنه ليس وليد فعل التضامن وتأثيره ولكنه نتيجة لازمة للمحافظة على النظام بالشكل الذي وضع عليه في المجتمع بفعل توازن القوات الفردية والقوات الاجتماعية وكذلك بتوازن القوات الداخلية والقوات الخارجية . إنه يضع مصلحة المجموع العامة التي تباشرها سلطة مركزية تسعى وراء الغاية المرجوة ويختار الوسائل ويفرض قراراته فوق مصالح المجتمعات الفرعية وفوق اشتباك المصالح الفردية وامتزاجها . إن القانوني العضوي هو عبارة عن جسم مؤلف من قواعد منظمة حول مبدأ نظامي يحركه عقل يتمتع بذكاء وارادة .

فهو إذن لا يتعرض للاهتزازات العنيفة الوحشية لأنه يحكم بداخل جهاز تراكمت عناصره ولكنها ترتبط ببعضها بعدة وظائف تخصيصية وتقسيم دقيق للعمل . فبقاء الشركة مضمون أولاً بعدم مقدرة الأعضاء على العيش منفردين ثم بظهور ارادة مفكرة تسهر على تماسك المجموع وتحوله عن الاخطار التي يمكن أن تؤثر على كيانه . وزيادة على ذلك فان التوازن بين مختلف الأجزاء يستقيم أو يستقر بسهولة بفضل تركيز السلطة التي تتدخل في أية لحظة

وبين جميع أجزاء الجسم الاجتماعي لتوفير الجهود وتمنع تصادمات القوى وتساعد الأحزاب وتنظم الاضطرابات وتوجهها نحو المجاري المفيدة . إنه ينجو من الاختلاجات الثورية التي تلقي الاضطراب وتخلق الفتنة . إن التطور التدريجي يوجد ذلك الاستقرار النسبي وهو أشد ما تحتاج اليه المجتمعات البشرية . إن النظام يحول دون اضمحلال القوات التي تتلاشى أو تستقل لولا وجود هذا النظام . وبعكس ذلك فإن النظام إذا وفق بين القوات وجمعها فانه يستطيع أن يستخدمها كلها . وتحل القوة في الحق العضوي يتجلى في قواعد واضحة جلية وفي نصوص تصدرها سلطة عليا تستطيع أن تقيدها بعقوبة رادعة يستند احترامها إلى الاكراه الذي ينفذ باسم جميع أعضاء المجموع وبالوسائل التي يقررها .

إن هذا العهد — عهد النظام والأمن — يرمي الى استخلاص أحسن ما يمكن الحصول عليه من الكفاءات الفردية بتوجيهها نحو أنسب الغايات لمصلحة الجميع . يقيناً أن الأفراد يمكن أن يقفوا أزاء بعضهم في منازعات مختلفة إلاّ أن السلطة الاجتماعية لا بدّ أن تتدخل إما من تلقاء نفسها أو بناء على طلب أحد الخصوم أو على الأقل في الحالات الهامّة لفض النزاع بما فيه المصلحة العامة ، وتمنع الضرر عن بقية أعضاء الهيأة . وإذ ذاك لا يبقى أمام كل فرد أية وسيلة غير استعمال نشاطه لفائدة أمثاله لينال منهم — في مقابل ذلك — خدمات تعادلها .

ان حق العلاقات الخارجية نشأ عن الكفاءة في إيقاع الضرر ، إن القانون الداخلي للمجتمعات المنظمة يقوم على أساس الكفاءة في التعاون والمنفعة . وهو يرمي الى التوفيق بين العدالة القائمة على البدل والتي تحتم وجود المساواة في عمليات البدل ، وبين العدالة القائمة على التوزيع التي تضمن في حالات القسمة توزيعاً متناسباً مع الخدمات المؤداة والحقوق المكتسبة . إذ أنه في الواقع اذا ضمت قواعد العقد الى التشريع فإنه يخلع عليه ثوباً شبيهاً من الأفكار الاجتماعية . إنه يلاحظ مكانة المتعاقدين ويشرف عليها مترقباً من ورائها مصالح عامة ، ويضع مكيال نفوذه في كفة الميزان لترجيح من تكون نتائج عمله في مصلحة الأغلبية . إن المهن الصناعية أو التجارية ،وأخص أنواع النشاط هي ، على حد قول ايهرنج « أكثر خدمة للمجتمع » بقدر ما هي عليه الوظائف الحكومية بمعنى الكلمة . إذ مثل

هذا الالمام بمبدأ العدالة القائمة على التوزيع يزيد من مبدأ العدالة القائمة على البدل قيمة ولباقة .

* * *

ولنلاحظ أيضاً أن الحق العضوي يحمي الحرية الفردية المضطهدة سواء من الأقوياء في عهد الحق القديم المستبد أو من المجتمع نفسه عندما يكون هذا المجتمع مؤلفاً من وحدات كلها متشابهة ومعادية للشخصيات البارزة . ان قوة المشاعر الاجتماعية — في المجموعات المتجانسة المنسجمة — تبلغ حداً لا تقبل معه وجود أي اختلاف أو تباين ولكن تخصيص الوظائف الذي يزداد باطراد يولد أفراداً مختلفين يكون شذوذهم ضرورياً لحياة مجموع الأعضاء . إن البحث عن اصلاح الفرد اصلاحاً تاماً بواسطة استعمال الفضائل الشخصية يعد عاملاً للرقي الاجتماعي . كما ان سلطة المجموع المركزية تزيل العقبات التي تحول دون نمو النقاط الخاص وتساعد على الحرية الفردية بشرط عدم تحويل تلك الحرية الفردية وتوجيهها ضد المجموع .

وهكذا الحال فيما يتعلق بالمساواة . لقد لاحظوا أن التركيز والمساواة ينموان على خطين متوازيين . وعدم المساواة الاجتماعي يكون دائماً بنسبة معكوسة لقوة السلطة . فالسلطة المركزية اذا كانت شديدة التوة قلما تكون عادة مهدة متساوية ، فهي تستند على الصغار والضعفاء — وهم يؤلفون الأغلبية — للايقاع بأرفع الرؤوس الذين يضايقونها . إن المساواة أمام القانون تكاد تكون دائماً الشرط الأساسي الذي ينص عليه القانون . ولكنها لا تكاد تحكم بغير نزاع حتى تتلاشى القواعد الخاصة وتزول أمامها . إن التعميم وعدم التخصيص الذي يضمن للجميع معاملة متساوية لمن الصفات الجوهرية للقانون . كما أن تعميم القانون هو الذي كان يميز ادراك القدماء لمعنى القانون . ان المدن اليونانية والرومانية لم تدرك أبداً أنه يمكن وجود حقوق فردية محترمة يقدرحقوق الدولة . فالمدينة — في نظرها — تتمتع بالحرية اذا كانت الدولة لا تحكم إلا باصدار نصوص عامة منصوص عنها سلفاً ، وتطبق على الجميع . ان القدماء كانوا يعارضون في القانون المجرد الذي يحكم بالأساليب الشخصية ويميز الظلم والاستبداد .

الفصل السادس

الحق الكمالي للضمير الاجتماعي

الحقيقة ان مجرد توازن القوات بين الخصوم ، وفي أي عهد كان ، لا يمكن أن يكفي لتقويم الحق ، ولا بد — للوصول الى ذلك — أن يتمتع هؤلاء الخصوم ببعض الآراء المشتركة . فلا يعقل مثلاً أن تستطيع طغمة من الرجال المستوحشين الاتفاق مع قطيع من النمرة على تقسيم حق الصيد فيما بينهم في ناحية من نواحي الغابات الآبدة . ففي العالم قد يكون « توازن تلك القوات العديدة الكامنة في الأفراد والجماعات والشعوب والتي تعمل من جنس الى جنس ومن عهد الى عهد » هو ما كانت عليه حال العالم في وقت ما . على أن تلك الحال ليست قانونية . وإنه لمن الضروري أن يشترك الخصوم مع بعضهم في مفاوضات ويتفاهمون بكل دقة ، كما انه يجب أن يتمتعوا ببعض الأفكار المشتركة ، وأن تكون لهم طريقة واحدة في ربط آرائهم ببعضها والادلاء بها . ومما لاشك فيه إنه كلما ازداد التقارب بين الرجال واستطاعوا في بعض الظروف الانقياد لبعضهم ، سهل إيجاد اتفاقات ومعاهدات يمكن المحافظة عليها فيما بينهم . وانه ليسهل عقد اتفاقات دقيقة مشتركة لأجل بعيد بين رجلين من مدينة واحدة على عقد اتفاق بين رجل غير متمدين من وسط أفريقا ، وممثل دولة من دول أوروبا الغربية . ان وجود نوع من التجانس الطبيعي يعد شرطاً أساسيًّا لإيجاد الحق ، والدليل على ذلك ما نراه من السهولة التي يمتاز بها البعض في التخلص من التزاماتهم نحو أشخاص من جنس آخر .

ولا بد للقوات المتباينة — لكي تتحد وتنسجم — أن تجتمع على الأقل في رؤوس متشابهة .

***

ولا ينتج من ذلك أن الأفراد وحدهم هم الذين يمكن أن يتمتعوا بالقانون ويكونوا

من أتباعه، إذ أن في مكنة الهيئات أن تؤلف شخصيات معنوية تتقيد بالالتزامات القانونية وتخضع لها . بلغا من ظاهرة عجيبة ! يحال أن شخصية الجماعات تنقص أحياناً عندما تسمو الشخصية البشرية الى حد أنه لا يرى وراء المجموع الكلي المؤلف من الدولة إلا أشباح الأفراد . بل يذهب البعض الى حد إنكار حقيقة الأشخاص المعنويين ومنازعة حق الجماعات . ولكن عبثاً تحاول التشريعات القائمة على الفردية أن تمتنع عن الاعتراف بحياة الهيئات . فالهيئة تبدو أرفع من الأعضاء الذين يؤلفونها . والكل لا يساوي مجموع أجزائه ، ومن تقاربهما يتولد شخص جديد أدنى لأن يكون تابعاً للقانون . ويكفي ، ليصبح الأمر كذلك ، أن يتمتع هذا الشخص بالصفات التي يحتاج اليها الانسان ليفرض نفسه على أمثاله . ولذلك يجب أن يمثل مركزاً لمصالح مختلفة وأن يتمتع بإرادة تخدمها قوة عاملة فعّالة تستطيع أن تنفذ تلك الإرادة . إن هذه العناصر الثلاثة ضرورية أيضاً . فالمصلحة . أو المصالح ، التي تقوم حولها الهيأة يمكن أن تكون من طبيعة مادية أو أدبية ، فتارةً تنجلي في السعي وراء المصلحة المادية وتارةً تسعى وراء عمل يتطلب الفطنة والذكاء أو كلاهما معاً . وفي سبيل الوصول الى تلك الغاية وجب على المجتمعين المقيدين بفكرة واحدة أو شعور واحد ، أن ينظموا أنفسهم ، أي أن يعطوا لشركتهم شكلاً تستطيع به أن تريد وتعمل .

إن الإرادة توجد عندما تلتقي المشاعر الخارجية والاختلاجات الداخلية — بفعل ظاهرة التركيز — عند نقطة واحدة حيث تتخذ القرارات الخاضعة للإرادة الخاصة بالغاية المشتركة وتنفذ بمعرفة جميع المشتركين . « الاحساس ، والادراك الأولي ، والفكرة ، والرغبة ، والارادة ، والعمل الادراكي ثم المنعكس ، تلك هي الدورة لهذه الظاهرة النفسانية » . ان الهيئة تعمل وتتصرف كشخص — إذ تتمتع بالذاكرة بفضل التقاليد ، والحرص بفضل التفكير — عندما تشعر بوحدتها ومدتها ، وعندما تكون ارادتها متسلطة على الاختلاجات المحلية والاقتراحات الوقتية ، فتستمر بمصالح المجموع العامة المستديمة ، ان حياة الحرية ، بما تتضمنه من مجازفات وما يتخللها من اختبارات وتجارب هي التي تساعد بوجه خاص على تكوين الفردية لجميع أعمالها منظمة متناسقة وتظل متشابهة حتى ليمكن ، في بعض الحالات ، تقدير الاتجاه الذي ستتخذه في أغلب الظروف .

ومع ذلك فتلك الإرادة لا تستطيع أن تعبر عما يخالجها فحسب ، بل يجب عليها أن تتحقق وتنجز ، وان تتمتع بقوة في خدمتها الوصول الى الغاية التي وضعتها نصب عينيها لقهر العقبات التي تحول بينها وبين تلك الغاية . وفي النهاية ، لكي تقاوم القوات الارغامية ، أو الدافعية الى الانحلال والتفكك التي تهددها ، تارةً بفعل مجموعة أعضائها الذين تجمهروا وألفوا كتلة كثيفة ، وطوراً بفعل حكم ومنظم يقوم به أعضاء اخصائيون وقفوا أنفسهم على بذل جهودهم في اتجاه واحد . ان الهيئة — وهي بمثابة جيش الهجوم والدفاع — تتجلى كحقيقة لا يمكن اهمالها . أما قواتها فبعضها مادية وتعمل في الكيان البشري . والأخرى أدبية وتعمل في عالم الأفكار والمشاعر . وليس أثمن لها من قوتها الاجتماعية وارتباط المنتسبين اليها وقدرتهم على احتمال الالم بل وعلى التضحية في سبيل المجتمع الذي ينتمون إليه .

عندما تجتمع كل هذه المزايا في مجموعة اجتماعية ، وتمتاز هكذا على أقرانها ، وتتدخل بين الرجال بجميع قواتها التي تحركها إرادة ثابتة ، فانها لا تكون فقط — كما زعموا — مرهجة للشخصية القانونية ، بل هي في الواقع شخصية أدبية ومعنوية . إن الاعتراف بدولة كعضو في المجتمع الدولي من ناحية النظام السياسي ، والتصريح أو الاعتراف بها طبيعة خاصة من منفعة عمومية في التشريع الداخلي ، لا يعتبر إمتيازاً وديًّا ممنوحاً بحرية اذ أنه مجرد تقرير واقعة . ان الاعتراف بحق الأشراف ، لحكومة أو لدولة جديدة ، يتحوّل صريحاً الى الاعتراف لها بحق التقنين عند ما تتجلى حيويتها واستعدادها للقيام بعلاقات ثابتة مع جيرانها .

* * *

وهكذا فاننا نستطيع أن نحاول التوفيق بين الحق العرضي والحق الموضوعي اللذين انشقّ بسببهما حديثاً أتباع المدرستين . فهل الحقوق العرضية للأفراد تشتق من الحق الموضوعي ، أي من مجموع القواعد الواقعية : أم هلاّ يكون الفرد — وهو الأصل — هو مبدأ الحق وأساسه ؟ ان الرسالة التي وضعها ديجوي بعد أوجست كونت معروفة . الحق الفرد ، في نظره ، يشتق بوجه خاص ، من الوظيفة الاجتماعية التي يؤديها ، ومن واجباته نحو المجتمع ، ومن التضامن الذي يتجلى في قاعدة الحق . ليست للرجل حقوق بنفسه — كما

يقول — ولكن جميع أعماله التي ترمي الى غاية مطابقة للتضامن الاجتماعي — وإن مطابقة للحق الموضوعي — نعترف بها ونعدها قانوناً وقد لخص الاستاذ دوجي هذا المذهب بعبارات غريبة شيئاً : « هذا المذهب القانوني يتجلى في شكل توزيع اجتماعي للنشاط . إن النشاط القانوني يسير في شرايين قاعدة الحق ثم يستمد الأفراد انتباههم ويتحدون بواسطة المقاييس وهي الأعمال الشرطية » . ان هذه النظرية تنفي احدى العناصر التي تشترك في إيجاد الحق ، لأن الحق يبدأ أولاً من التحديد المتبادل القوات الفردية ، ثم يتوطد بتعاون تلك القوات . أما كيف تتعارض عند توازنها وكيف تتجمع وهي تتنوع ، فهذا هو الحق كله في مظهريه . وعند ما تتحدد معنى الحق الواقعي ووضع ، بعد أن تأسس وتوطد ، بقيت الحقوق الفردية المتنظمة تحت حماية فعّالة — إننا لا نقول مع ايهرنج ان الحق مصلحة يحميها القانون لأن المصلحة جماد والحق لا يتولد إلاّ عن العمل ، وانما نذهب الى أبعد من هذا ونقول خيراً منه . إن الحق سلطة يعترف بها القانون هو عمل قوة فردية أو اجتماعية ينفذ بحرية في الاتجاه وفي الحدود التي تلائم مجموع القوات المتعارضة . وان كانت متضامنة ، والتي يتم اندماجها ببعضها في الحق الواقعي .

* * *

لا يوجد اختلاف جوهري في الطبيعة بين السلطة والحرية . فالحرية ليست الاّ سلطة للعمل والمقاومة . ولكنهم يطلقون اسم السلطة على الحريات القوية التي — سواء أكانت منفردة أو متنزلة — تسيطر على الحريات الاخرى ، ويُحتفظ باسم الحرية للسلطات التي ، وان كانت لا تستطيع الفوز لشدة ضعفها ، إلاّ أنها تستطيع الحصول على ما يكفي لتحترم فعلاً . اما في المجتمع المنتظم ، فان كل فرد يشترك ، بفضل حركة التضامن التي تُقرب أو تستعمل الاكراه ، في السلطة التي تصدر الحق الواقعي ، كما انه — بفضل لعبة الحرية التي تُقسّم وتعارض — يحافظ على حريته ويدافع عن حقوقه العرضية . وهكذا فان الأفراد — باعتبارهم تارة من واضعي القانون وطوراً من أتباعه ، بل بهاتين الصفتين معاً — يخضعون للقواعد التي وضعوها ويتم فيها تآلف الحق الواقعي الذي ينشأ عن الوظيفة والحق العرضي الذي يرتكز على القوة . أن الوظيفة تُنفذ بفضل القوة والقوة تجد ما يشغلها في

الوظيفة ولكن ليس إلى حد أنها تتلاشى فيها . وهكذا نفسر كيف يربط الفرد الجماعة بأكملها عندما يعمل كعضو في تأدية وظيفة تعود بالفائدة على الجميع وكيف أيضاً يتحدى الجماعة بحقوقه الخاصة عندما يطالب بفوائد عمله . لقد دفعوا أحياناً بأن النظرية التي تجعل من المشرعين والموظفين أعضاء في الدولة تمثل النظرية التي ترى فيهم وكلاء عنها اذا روعيت العلاقات التي تقوم بين المجموع والخارج ، ولكنها تخطىء من حيث أنها لا تفسر العلاقات بين الموظفين والمجموع الذي ينتمون اليه إذ أنهم لا يقولون أن مجموع الاعضاء لا يتمايز عن أعضائه ، ولا يوجد بين هؤلاء الاعضاء وذلك المجموع علاقات ثنوية ، إن هذا النقد لا يقوم على أساس صحيح . فالاعضاء متضامنون مع المجموع عندما يؤدون وظائفهم : أنهم يتميزون عنه عندما يتذرعون بقوتهم الخاصة ليطالبوا بحصتهم في النشاط المشترك .

وهكذا تتجلى الميزتان ـ مع تعارضهما في الظاهر ـ للحق الذي يعتبر مجموع العلاقات الاجبارية بين رجال أحرار أو مجتمعات مستقلة . ان غايته ترمي إلى تنظيم صلاتهم على أساس الاستقلال الذاتي ، عندما يفقد فرد أو مجموع أفراد حريته ، سواء باندماج مصالحه بمصالح الغير أو بزوال ارادته ، أو بانعدام قواته وتلاشيها ، فانه يفقد تبعيته للقانون ، ان الشركة التجارية التي تندمج مع شركة أخرى منافسة لها ، والهيئة المنقسمة إلى حزبين متساويين متعارضين ، والرجل المستعبد أو الولد الذي ينزى ، جميع أولاء يفقدون شخصيتهم القانونية في نفس الوقت الذي يفقدون فيه صفتهم كأشخاص بشرية أو أشخاص معنوية ، ويصبحون في مصاف الاشياء التي يمكن اعتبارها من الماديات أو الجماد لا من أتباع القانون . إن الصلة التي تربطهم بالعالم تصبح صلة مادية لا صلة أدبية أو أخلاقية . ولكن إذا كان استعباد رجل أو جماعة لرجل آخر أو جماعة أخرى تقصيه عن القانون ، فان الأمر يكون على نقيض ذلك فيما يتعلق بتبعية الأفراد أو الشركات الأولية في وسط هيئة أكثر مجالاً واتساعاً ، وخضوعهم لنظام عام غير شخصي يوفق فيما بينهم ولكنه لا يقيد جهودهم وأعمالهم .

ان اتحاد الاستقلال والاكراه هو عقدة موضوع الحق . فهذان اللفظان المتناقضان

بالتقيد عند القاعدة الالزامية المفروضة على الجميع والتي يسعى الجميع الى تأييدها كما أنها تضمن حرية كل فرد بفضل تعميمها .

إن الفرد مستقل أيضاً بمعنى انه حر ماديًّا في ارتكاب الافعال المحرمة وعدم تنفيذ الاعمال المفروضة شرعاً . ان الاكراه لا يطبق عليه بصفة احتياطية الا في ظروف استثنائية في سبيل المحافظة على النظام في الطريق العام . ان المتشرد والحشر يتجه الى ذكائه ، ويدرك مسئوليته ، والعقوبة التي يستحقها تتبين لعقله وانه ليتقبل طوعاً عواقب أعماله الخاضعة لقواعد يشترك في وضعها .

***

ان توازن القوات الآلي ، والتضامن الذي يربط أجزاء مجموعة الاعضاء ، لا يؤديان في المجتمعات البشرية عملاً ماديًّا كما هي الحال في المولد المعدني أو المولد الحيواني . وتأثيرها يدرك الرجال عن طريق الافكار . ان العقل يدرك الوقائع بشكل أعراض تحدد سيرها ، والاكراه القوي يظهر على جسم من هو أضعف منه أقل مما يتجلى على ارادته . ان التضامن لا يختبر كما تختبر الملهاة التي يتجمع أمامها الافراد ولكنه يقابل باعتبار انه شرط أساسي للحياة المشتركة التي تفضل على الوحدة . فالعلاقات التي تنشأ بين الرجال تقوم على أفكار وآراء وعقائد متبادلة .

لا شك في أن حالة العقل لا بد أن تلائم — مع مرور الزمن — حالة الأعضاء . فالتوازن يؤدي الى التسامح والتساهل . ولما كانت القوات المتعارضة لا تستطيع أن تقرر بعضها فانها حتماً ستحترم بعضها لأنها تعودت أن تستقل بنفسها . ان التضامن الموضوعي — الذي لا يخرج عن حد كونه تعاوناً متبادلاً ناشئاً عن تقسيم الوظائف — يؤدي الى التضامن العرضي الذي يؤثر على الضمائر . فليست المصالح وحدها هي التي تتقارب وتتداني ، بل هي المشاعر التي تتجاذب ، واندماج المصالح الذي اعتاد التقريب بين النفوس . ان العيش المشترك جنباً الى جنب ، وتبادل الخدمات ، وتعاون الجهود والاتفاق القائم على تبادل الآراء ، هو الذي يحمل الرجال على الشعور — في كل آونة — بأنهم يكملون بعضهم ، وانهم جزء من كل لا يتجزأ ، وان سعادة كل منهم رهينة برفاهية المجموع . ان الرجال لا يدركون

الخدمات المشتركة التي يؤدونها لبعضهم بمناسبة كل عمل من أعمالهم ، فتكرار هذه الأعمال يولد شعوراً عميقاً مستديماً بنسبة حاجتهم الى بعضهم ، وينتهي بهم الحال الى أن يتمثلوا دائماً شخص غيرهم ماثلاً أمامهم . إن الميل الطبيعي يتولد عن الاحتكاك المتكرر وعن الانفعالات المتبادلة . وتبادل الخدمات يحدث امتزاجاً في العواطف وانسجاماً في المشاعر ، والانتباه الى نفس المجموع يوجد — ما يسمونه — عقل الجسم .

ولكن الأفكار التي تلهمها الاشياء والأشخاص الى عقل الرجل لا تظل سجينة في دماغه . فالكلام ، والكتابة عند اختراعها ، والتربية العائلية ، والتعليم عند انشائه ، والخطابة العامة ، والصحافة عند انتشارها ، كل هذه العوامل قد ساعدت الأفراد على انشاء العلاقات المستمرة فيما بينهم وأخذت آراؤهم وعقائدهم تتناقل وتتنادى بعضها أو تتضارب وتتأثر ببعضها . انها تتأثر بالاندماج وتصاب بنوع من التحريف يجعلها مختلفة عن الأفكار الفردية . انها تكتسب صفات جديدة . وكما ان التركيب الكيماوي يولد مشتقات تختلف صفاتها اختلافاً كلياً عن صفات الأصول التي اشتقت منها ، كالماء مثلاً فانه يتميز — بصفات جديدة عن الهيدروجين والأوكسجين اللذين يشتق من امتزاجهما ، كذلك الأفكار فان عملها المتبادل يحول من طبيعتها . لم تعد تلك الأفكار من صنع الأفراد مباشرة ، ولكنها تنشأ عن تعاونهم . والأفكار الاجماعية ليست كلاً ولا حاصلاً ، ومن ذلك تتبين قرابتها بل ، ويمكن القول ، يتبين كيانها المستقل ذاتياً . لا شك في أن مركز هذه الأفكار هي الضمائر الفردية على انها مع ذلك تتجاوزها ، فبصفتها الاجماعية تعتبر غريبة عنها نوعاً ما : فهي في بعضها تأتي من الخارج ما دامت قد تأثرت بما يحيط بها . فاذا قسمت المجتمع الى أجزاء فانك لن تجد ، بضم أفكار الجميع ، نفس الأفكار التي كانت تشغل الأمة مجتمعة . واذا غيرت تركيب ذلك المجتمع ومداه أو كثافته فانك تغير في نفس الوقت أفكار أعضائه . وعلى ذلك يكون تكوين الأفكار الاجماعية من عمل المجموع الاجتماعي . وهذه الأفكار — بمجرد ظهورها — تحيا حياة خاصة مستقلة عن شرائع النفسية الفردية . إن التأثير الذي يحدثه بعضها على البعض الآخر ، اذا تكرر وتضاعف بعدد الأفراد الكبير ، يحدد عملاً هو في عنفه وشدته ، أقصى بكثير من عمل الوحدات الأولية اذا تجمع

ما هو خرق ذلك الضمير الاجماعي ؟ انه مؤلف من نوعي مبادىء : الاقتضاءات العملية والاعتقادات النظرية . ان الرجال يلاحظون أن الاحتفاظ بكيانهم مشتركاً يستلزم جمع بعض الاعتراطات . إنهم يدركون ـ على الأقل في شيء من الارتباك وبواسطة الاختبار ـ أن توازن القوات يجب احترامه وان التضامن يجب المحافظة عليه في المجموع تلك القواعد لا تهمل بغير عقاب : فكل مخالفة تجد رادعها في عواقبها .

على أن عقل الرجل يضطرب، لا من علاقاته بأمثاله فحسب ، ولكن أيضاً من صلاته بالعالم المحيط به : كالأمور الطبيعية التي يلاحظ وجودها ، والأمور الخارقة للطبيعة التي يتوقع حدوثها غير المنظور . انه يحاول أن يدرك عمل القوات الطبيعية باعتباره منتهياً بها أو باعتباره ضحية لها ، إنه يرتبك من مركباته الأصلي ومسألة نهايته . ففي العصور الأولية كان الرجل لا يميز بين هذين العالمين ، بين المنظور وغير المنظور ، بين الروحاني والزماني . ان العقلية القديمة كانت تقوم على « الكل يشترك في الكل » . وهكذا ليس هناك ما يدهش ، في أن سلسلتي المبادىء العملية . والمبادىء النظرية لم تؤلفا ، منذ البدء ، إلاّ قياساً واحداً لافكار متضافرة لا يمكن التفريق بينها . وكما أن الأفكار تتأثر من دماغ الى آخر ، فانها كذلك تتحد وترتبط في عقل واحد ، فهي غير مرتبة على انفصال ولكنها متجمعة في بناء أدبي تجمعاً دقيقاً . وكل فكرة جديدة لا تستطيع أن تجد لها مكاناً في هذا البناء الاّ اذا أزاحت قليلاً ، وأحياناً اذا اصطدمت بمجموع العقائد والمعارف المكتسبة مع احتمال الضغط عليها أيضاً . ان العقائد ، وخصوصاً من كانت ذات صفة دينية في البدء ، قد ربطت بين مجموعة المعارف الاختيارية والنتائج العملية قد هذبت من جانبها الاعوجاجات التي كانت تؤدي اليها نتائج الاعتقادات وعواقبها . ان معنى الحياة ـ حسب تفسير المذاهب والفلسفة ـ وضروريات الحياة المستخلصة من الاحتكاك اليومي بالحقائق ، قد اندمجت بجسم من الأفكار التي تلهم الأعمال البشرية . ان سقوط الحق طبقاً للنقوس الدينية أو الحظر، تتخذ أسساً للقواعد التي يستلزم وجودها كل تعاون وكل حياة مشتركة . أولم يفسروا الألوهية بأنها ليست سوى المجتمع الذي تجلى وبلغ حد الكمال ، والكائن الاجتماعي الذي سما على الكائن الفردي ، والحقيقة السامية التي لا تأمر بالاحترام فحسب بل تتطلب الحب

والعبادة . إن نفوذ مبادىء هذين النظامين كان عامًّا . فالعقائد الدينية والحقائق العلمية ، وسقوط الحق قضائيًّا أو أدبيًّا ، والطرائق الفنية أو الاصطلاحية كانت كلها خاضعة لقياس فكري واحد .

هكذا يتضح لنا ما كان عليه — في الأصل — المظهر الديني لقواعد الحق ، والصفة المقدسة للاجراءات التعسفية والاضطهادات التي كانت تتخذها السلطة الاجتماعية التي تمثل الارادة السماوية . فاذا كانت طقوس المراسيم الدينية قد ساعدت على منح القوة الاجبارية للارادات الخاصة ، فذلك يرجع الى أنه — عند اندماج المبادىء الأولية — كان كل شيء متماسكاً ، وكان الدين يسيطر على ما هو غير ديني ويساعده .

على أن مدى العلم قد اتسع . وقد وقف جهوده على تنويع وجهات النظر ، لا على التفريق بين الأفكار وتفكيكها ، بل على النظر إليها من جميع نواحيها وتمييز مظاهرها . فالعلم قد ساعد إذن على فصل المبادىء التي كانت في البدء مبهمة . ثم وجه عنايته الخاصة نحو المعارف الاختيارية ونجح في استخلاص الحقائق غير الذاتية والموضوعية .

يقيناً أن جملة جميع هذه العوامل تختلف مع الزمن والتطور . فقد فقد الدين ، في كثير من البلاد ، صفته الرسمية ولجأ الى أعماق الضمائر ، وسقوط الحق شرعاً قد انفصل عن القواعد الدينية ، وأضت الشريعة علمانية ، وتحررت الأخلاق من العقائد . وكذلك نشاط المهنة فانه قد تحرر عن نظام القواعد الضيقة . وفقد عمل المجتمع على الفرد صفته الالزامية بتشعب العلاقات وامتزاجها المطرد . وقد عادت الفلسفة بهذا التطور فاعترفت للافراد بالمكانة السامية بعد أن انتزعت تلك الصفة من نوع المجتمع الذي يطلق عليه اسم الدولة . ان الدور الذي يمثله الفرد ، بعد أن وضح بتمييز الوظائف وتنويعها ، يرفع من شأنه ويزيده استقلالاً في رأيه . فهو لم يعد ذلك الرجل المتواضع النحيل المرهق بسطوة المجتمع الذي يُعد فيه عضواً ضئيلاً مشابهاً لجميع الاعضاء الآخرين ، بل أصبح ذلك الرجل المطلق ذلك الرجل الذاتي الذي تحمي حقوقه اعترافات علنية صريحة تقرر بأن هذه الحقوق محترمة مقدسة لا تباح ولا تنتهك لها حرمة .

ومع ذلك فالمجتمع ، على الرغم من وصوله الى تلك الدرجة من التطور ، لا يزال يحتفظ

بتأثير عظيم على اعضائه . فاذا كان الاكراه المادي الذي يثقل عليهم قد قلّ وضعف ، فان تأثير العقول على بعضها يظل راجحاً : الافكار تتبادل وترتبط وتمتزج ، وأعمال الأفراد ومقاومتهم المستمرة للمجموع وأعمال المجموع ومقاومته للأفراد — أو العلة والمعلول للموافقة الاجتماعية — لا تترك الا مجالاً محدوداً للتدخل الفردي . فما هو نصيب المخترع ونصيب المجتمع من كل اختراع ؟ ليس أصعب من تحديد ذلك ، على أنه لا شك في أن نصيب المجتمع هو الأوفر .

على أن المعاصرين لا يتأثرون وحدهم من بعضهم فهناك أيضاً السلالات المتعاقبة فانها تؤثر على بعضها بأن تخلف لها الكنوز التي انتزعت من الطبيعة وتراكمت شيئاً فشيئاً . لقد ارتفع الرجل وسما على الحيوان بفضل التقاليد التي حافظ عليها ، ثم أضاف اليها وأورثها لخلفه ، إن حصة كل سلالة في تكوين العلم البشري ضئيلة بالنسبة للعلم الذي خلفته السلالات السابقة . فاذا كان مجموع المعارف التي يحصل عليها كل فرد بمجرد اختياره الذاتي يفنى معه ، فلا شك في أن الرجل يظل راكداً يتخبط في أعمد ديا جير الظلمة والشقاء . ولكن اللغة التي ينطق بها واللغة التي يكتب بها وهو للذاكرة الفردية بالمران ، وتكوين الذاكرة الاجتماعية بالتقليد ، وايجاد محفوظات علمية بفضل المخطوطات ثم بفضل الطباعة ، كل ذلك قد ساعد على نشر المبادىء المكتسبة بين الرجال في جميع العصور ونقلها من الماضي الى المستقبل . ان العمل المشترك قد تعاقب بغير توقف خلال الزمن والفضاء بفضل التعاون . إنهم يلاحظون أحياناً الاختلاف البيّن في الآراء عند كثير من الاتباع . ولكن اجماع العقائد على أغلب النقط يظل مستمراً لان المسائل التي تحدث الانقسام تثير المناقضات الحادة المتشعبة : إن الاجماع على الموافقة لا يحتاج — بالعكس — إلا الصمت . من لا يقول كلمة يوافق . ان المعلومات العلمية الثابتة ثبوتاً تاماً ، والاختبار العملي المتراكم ، يؤلفان مجموعة مبادىء واسعة تمتد الى ما لا نهاية له . فتتألف هكذا طائفة من المشاعر والأفكار لا تعتبر أطوارها المتعاقبة إلا لحظات من حياة اجتماعية مستمرة ، « إن الانسانية تتألف من أموات أكثر من الأحياء » ، وأفكارهم وعقائدهم تخلد في عقول خلفهم ، إن إرادتهم الميتة تتسلط على الارادات الحية وتتحكم فيها .

وهكذا يدرك المجتمع حالته والحالة الخارجية كما يدرك تركيبه الذاتي والوسط الذي يتطور فيه . ويلاحظ بواسطة تقلبات أعضائه ومعاملاتهم لبعضهم ، مقدار توازنهم وتضامنهم . كما أنه يشعر بواسطة تقلبات مجموعة الأعضاء ، بتأثير العوامل الخارجية إلى أي حد يخضع للوسط . ان أعضاءه يتآلفون مع بعضهم والمجموع يتآلف مع المحيط به وهكذا يتحقق التوازن بشروط وجوده أي بين القوات الداخلية والقوات الخارجية التي تعمل فيه وتؤثر عليه . إن النظام الخارجي مرتبط بالنظام الداخلي برباط متين مع إدراك المجتمع لحالته وحالة العالم إدراكاً يزداد تحسناً آناً بعد آن . إن شروط وجوده التي تتخذ صفة التضامن تؤدي الى وضع القواعد الثابتة المستديمة ، أما القواعد العرضية الطارئة فانها تكون عرضة للظلم والاستبداد ولكن مع تقرير النتائج . أما المنشقون الذين يرغبون في التجاوز عن العقد والخروج على سيطرة المعاهد المؤسسة على العقائد الاجتماعية فانهم يعودون الى حظيرتهم بتأثير الاستنكار الذي تثيره محاولاتهم وعند الحاجة بفعل القوة المادية التي تتمتع بها الجماعة .

ولكن جميع هذه الأفكار ، المحصورة في العقول ، تصادم بعضها بعضاً وتحدث في الرجال تأثيراً قاطعاً بواسطة الشغب الذي يثيره الرأي العام أو بواسطة نداء النفوس الصامت ، وتتخذ صفة إجبارية . إن هذه العقائد خارجة عن الفرد لأنها إجماعية . وهي سابقة له لأنها كانت موجودة قبله في عقول الرجال . وهي لاحقة له لأنها ستظل بعد موته وتخلده في المجتمع الذي يدوم أكثر منه . وإذن فتلك العقائد ، وتلك القواعد هي أسمى من الفرد التي تُفرض عليه . ولما كان هذا الفرد لا يستطيع أن يغيرها أو يبدلها فانه مكره على إطاعتها . والى جانب ذلك فانها تتمتع بسلطة مزدوجة : سلطة القوة وسلطة الكمال ، لأنها ترغم الفرد وتخضعه وتتجاوزه ولأن لها صفة إجبارية كما أن لها قيمة لا يمكن قياسها بغيرها .

لقد طالما لاحظوا أن عدداً من الأفراد اذا اجتمعوا عفواً فان اجتماعهم يمتاز بالهياج والحماس . انهم يحتقرون الشك ويرتابون بروح النقد وقل أن يشعروا بالمصلحة أو يستعملوا العقل . إن البخيل يصبح مبذراً بتحريض جيرانه وتصفيقهم له ، والمتشكك يتأثر بجاذبية

الايمان ، والجبان يشعر بالشجاعة . إن الفرد في وسط المجموع يتنازل عن مصالحه بأبخس ثمن بل ويقبل أن يضحي بحياته مسروراً في سبيل المثل الأعلى الذي كانت فرائصه ترتعد فرقاً أمامه لو قدر له أن يكون وحيداً . وزيادة على ذلك فانه يسمو بنفسه إلى أعلا مكانة تحت تأثير الحمية والحماس .

وهكذا يمكن ادراك تأثير الجماعة على الأفكار البشرية بفضل مقاومة الافراد لبعضهم وبفضل تأثير الجماعة على الفردية . فمن تجمع الرجال تتولد قوة خاصة . فاذا كان كل واحد يشعر بأنه تحت سلطة المثل الأعلى « فذلك لأنه لا يوجد شخص واحد يستطيع أن يخلقه بمفرده . فلا بد لذلك من مولد الحرارة الذي يتألف من تقريب الضمائر » .

هنا يتضح تأثير الإحساس على الفكرة . فالفكرة قبل أن تنتشر في انحاء العقل تكون قد مرت بالشعور الوجداني واحتفظت باختلاجاته التي تنمو وتتكاثر باحتكاك الرجال ببعضهم .

فاذا كانت مجموعة مضطربة غير منتظمة قد التقت عفواً وتبددت سريعاً تشعر نحو مؤلفيها بتلك الفضيلة السامية فلا شك في أن الجماعات الثابتة المنتظمة تؤثر تأثيراً عظيماً على أعضائها الذين يستطيعون بدورهم العمل والتأثير على بعضهم طويلاً وتعديل حالتهم مدفوعين بنفس العوامل النفسية . إن الشرف والمجد هما ثمن أعمال البطولة السامية عن الاغراض التي ينتفع بها المجتمع بأسره . إنهما يشيدان بشعور حب الغير وبزجران الأنانية الطبيعية ، ويبدلان الطاعة المعقولة المنتظمة بالزهد والتضحية التامة في سبيل المجتمعات . وتتجاوز تلك المشاعر كل ذلك الى حد النشوة بالتضحية والظمأ الى الاستشهاد . ويتلاشى كل اعتبار للمصلحة والمجد . ويكفي الشعور بالواجب وحده لإثارة أنبل العواطف وأسمى الاعمال وكذلك لاحترام الأوامر الثابتة التي تدعو الجماعة الى المحافظة عليها والعمل بها : تعالك النفس ، وحب النظام ، والنشاط في العمل والشجاعة العسكرية .

ليست الغاية التي يحددها المثل الأعلى الاجماعي قاصرة على المصلحة المادية وبنوع ما اقتصادية . ان الحياة المشتركة تخلف آثاراً نفسية تعتبر إرثاً مشاعاً بين جميع المشتركين فيها : اللغة والآداب والفنون والفتوحات العلمية وقياس الأفكار ، وجميع أوضاع الفكرة

والأحساس وكلها تعتبر من وسائل مواصلات العقول والأرواح في الفضاء وفي الزمن ، وكذلك كل ما يربطنا بالسلالات السالفة التي ندين لها بها ، وكل ما يقيدنا بأمثالنا الذين نقتسمها معهم ، وكل ما يسمح لنا بالاتصال بأعقابنا الذين نورثها لهم . وهذا الميراث الأدبي يضاف الى الميراث الذي وضعت حراسته في ذمة الوطنية فكانت أول مهمة عهد بها إليها . كانت الوطنية في بادىء الأمر قاصرة على الدفاع عن الزراعة والأغنام ، ثم انتقلت مهمتها الى الدفاع عن الأرض المشاعة بين أعضاء العشيرة والأشخاص وآلهة القبيلة أو المدينة ، فهي إذن عبادة الذكريات المشتركة والآمال المشتركة ، والأفكار التي تشترك فيها الأمة بأسرها . هذه الكفاءات التي لا تتجزأ لا يمكن أن تحتفظ بنفسها وتنمو إلا في المجتمع . فوضعت لنفسها نظام المناصب والدرجات . فهذا النظام الذي يمنحه المجتمع — بعداه ومدته — صفة غير شخصية يتجاوز الأفراد ويُعد أساساً للنظام الاجتماعي وأساساً للنظام الخلاق للسلم .

بل خير من ذلك . ان تلك الكفاءات الروحية ترمي الى تجاوز الحدود . فكما أن المبادلات المادية تتكاثر بواسطة الوسائل التجارية الخارجية التي تزداد نموّاً ، هكذا تفعل الأفكار ، فانها تنتشر وتمر من الحواجز الجركية بغير رسوم وتجتاز المراكز العسكرية بغير جواز مرور ، ثم بفضل التجرد الكلي والتخلي عن الصفات الذاتية لا تقف المدارك إلا عند ما هو إنساني وقابل للانتشار والتعميم ، وبطريق التشبه تبدي استعدادها الى نشر الوسائل الخاصة بالعلاقات الداخلية والى وضع قانون دولي تبدأ فكرته المبهمة بالتغلغل في الضمير الاجتماعي للشعوب المتمدينة ولا تزال تؤثر فيه بواسطة الرأي العالمي .

قد يكون هذا « السبق » هو ما كان يتوقعه فلاسفة العصور السالفة عندما شادوا الحق على أساس العقل . كان سقراط يدلل بالشرائع غير المكتوبة الأزلية العامة التي تمتاز على الشرائع المتقلبة في المدن والدول . أما أفلاطون وفيثاغورس فان القانون لم يكن في نظرهما إلا الأمر الآدمي الذي لا ينتهك الصادر عن العقل وليس عمل الرجال التعسفي المستبد . وهذا هو أيضاً رأي سيشرون عندما وضع القاعدة المشهورة : إن الشرائع هي العلاقات اللازمة الناتجة عن طبيعة الأشياء . أما في نظر جروسيوس فالحق هو كل ما يلائم الطبيعة

المعقولة. وفي نظر «كانت» كل عمل يكون عادلاً إذا أمكن تعميم المبدأ وجعله قاعدة عامة.

أما في نظر «أوجست كونت» فإن ضغط النظام الخارجي المستمر الذي يدركه الفهم ويفسره، يولد النظام في عقولنا ثم في مشاعرنا وفي النهاية في أعمالنا. إنه يفرض، لضروريات الحياة، نظاماً عرضياً لا يلبث أن يصبح واقعياً بالاندماج المعقول والاتفاق الضروري بين مداركنا وملاحظاتنا. إن القواعد التي تنشأ عن حاجات العمل لا تحتمل فقط ولكنها تشتهى وتطلب، فتنال موافقة المدارك والإرادات. إن الشرائع الطبيعية عند ما تتغلغل في الضمير الاجتماعي فإنها تتدخل في الشرائع البشرية.

* * *

كيف تدخل هذه الأفكار الاجتماعية في الحق؟ إنها في بادىء الأمر ترشد القبائل والدول في قيادة الحروب وتوقيع المعاهدات؛ إن السعي وراء الحصول على مساعدة القوات المنظمة التي تؤثر على مصير الأشياء البشرية ليس غريباً على الطريقة التي يعامل بها المقاتلون أعداءهم. إننا نقرأ في التوراة أن الشعب اليهودي قد عقد اتفاقاً مع يهوا، إله الجيوش الذي ضمن له الغلبة على أعدائه مقابل عبادته بأمانة وإخلاص. إن المحارب الإسرائيلي الذي يحمل السلاح يخضع لمراسيم حفلات طائفية خاصة بتلك المهمة الدينية التي تنتهي بحفلة مشابهة في نهاية الحرب. أما معاهدات الصلح فإن احترامها مكفول بيمين يضعهم تحت الحماية الإلهية التي كانت لا تستهدى عبثاً. إن تدخل الكهنة في العصور الأولى لروما يُدخل، في استعمال الحروب، أولى مبادىء القانون الدولي.

على أن تأثير الأفكار الاجتماعية ضعيف في العلاقات الخارجية لأن العدو غريب عن القياس الأخلاقي والأدبي الذي يستوحيه من يحاربه أو من يفاوضه. وإذن فالتأثير يظل من ناحية واحدة. على أن الأمر على نقيض ذلك في جماعة منظمة، إن اندماج الأفكار والمشاعر يوجد انسجاماً معيناً. فأصحاب العلاقات على استعداد سابق للتوفيق بين أغراضهم المتناقضة وتحديد حقوقهم طبقاً لمبادىء معروفة من الطرفين. وهكذا تقرر العادة بسهوله وتقل المعارضة. إن فض النزاع يقبل عن طيبة خاطر من الطرفين المتنازعين عند ما يشعران جوهرياً أن فض النزاع ينال موافقة الشعور العام الذي يشتركان فيه أيضاً. ان الضغط الذي يقع

من الرأي المنتشر بحيث عند الأفراد تأثيراً كتأثير الاكراه الذي يصعب عليهم التحرر منه . إن تكرار التراثات المتشابهة ، وهو من عمل الضمير الاجماعي ، يعززه بدوره مع ايضاحه كما أنه يؤيده . من ذلك نشأت سلطة العادة ونفوذها وما هي إلا تجلي الضمير الاجماعي الذي تعبر عنه الكتلة الاجتماعية بجميع أجزائها ومن أعماقها .

إن تخصيص الأعمال من نتائج النظام الاجتماعي . ثم لا تلبث الوظيفة القضائية أن تباشر عملها بواسطة قضاة منتخبين أو معينين ، وقتيين محترفين أو وارثين . فالقاضي عند نظر القضية يتعلق بالقانون وهكذا يضعه . فهو العنصر الشامل للعادة وما العادة الا القاعدة التي تطبقها الأحكام . ولكن تلك القاعدة غير المدونة توجد في مخيلة القاضي : ان مقارنة أحكامه بعضها تبرزها وتوضحها . فالعادة هي التشريع قبل القانون . ولكن أين يجد القاضي القاعدة التي يطبقها ؟ انه يجدها في الضمير الاجماعي وفي الجو الذي يستنشقه . انه يعبر عن أفكار ومشاعر الوسط الذي يعيش بين ظهرانيه وناحيته وبلده . فهو ككل معاصريه ومواطنيه يشعر بها بشدة وعنف فما ان أختير لأداء المهمة القضائية حتى أبداها بكل وضوح وحدد دائرتها وقرر قوتها واتجاهها . إنه أكثر استعداداً وخبرة من غيره ، ولذلك فهو أجدر من المتقاضين على النص — من فوق منصته — عن الحق المستتر والحق الذي يتقرر في كل يوم ويتوطد بازدياد العلاقات البشرية ونموها .

والى جانب القاضي ، ثم فوقه ، تعمل سلطة أخرى على إيجاد القانون . فهناك رئيس الدولة . ثم — فيما بعد — الجمعيات البرلمانية ، فهم يضعون القواعد العامة المعدة لادارة نشاط الأفراد واستغلاله . فاذا كان القضاة مكلفين بضمان التطبيقات الفردية فليست لهم السلطة لتغيير النص . وهنا تظهر المهمة التشريعية . يجلس القانون الى جانب العادة ثم لا يلبث أن يطالب بالحلول محلها قطعاً . ان المشرعين الذين أجلستهم وظائفهم على رأس الدولة يتفقون في وسط البحث وعند نقطة التقاء جميع الأفكار الاجماعية . فلا يوجد خيرٌ منهم من يستطيع في وقت واحد أن يرى ضروريات الحكومة العملية ويميز الصوت الذي يصدر من أعماق الضمير الاجماعي . ان مهمتهم هي في التوفيق بين ميولهم ، وأحياناً تكون تلك الميول متشعبة ، وحصر القاعدة في صيغة واضحة أكيدة . وحيث أن مصدر القانون

واحد فانه ـ بفضل صفاء مادته وجرأتها ـ يتعارض مع جمل الشريعة ، واعوجاج العادة واتجاه التطبيق المتردد . إذ القضاة يعلمون أحق أمتي مناهره إذ انهم أنسب وأفضل الاعضاء وأكثرهم خبرة وتخصصاً وأقدرهم على ملء وظائفهم .

ولكن هل يمكنهم أن يفرضوا عليه وعده النهائي أو يدعوا ذلك ؟ وهل إنهم ـ التي تتحلى في القاضي ـ تأمن باحترام هذا القانون ما دام لم ينسخ تماماً حتى اذا كانت الظروف قد تغيرت منذ نشره ؟ شيء من ذلك لن يكون . إن القاعدة التي يقررها المشرعون تفقد تعيينها لهم بمجرد صدورها وتدخل في دائرة القياس القانوني الفسيحة وهي في حد ذاتها إحدى أصوله . إنها تندمج بالقوانين القديمة التي تقوم مع التشريع الذي يفسرها . عند احتكاك هذه الوقائع يتطور كل هذا المجموع ليتناسب مع الظروف الجديدة ، فيتحول المجتمع ، وتتبدل الهيئات ، وتجدد طرق الانتاج والتبادل ، ويقرر التعاون بين رأس المال والعمل بشكل لم يسبق له مثيل . فكيف يظل القانون ثابتاً لا يتغير ؟ بل كيف يستطيع أن يتبع هذه الحركة المتدفقة ؟

* * *

إن مسألة العلاقات بين الرجال تتخذ في كل لحظة مظاهر غير منتظرة . فجهاز القانون العظيم وبطء تكوينه ، يحتمان عليه البقاء في حالة جمود نسبية في وسط يتغير كل ما فيه بلا انقطاع . ومن حسن الحظ أن الضمير الاجتماعي يحافظ على وسائل تعبيره الأولى : العادات التجارية أو المتعلقة بالحرف ، وتشريع المحاكم ، تساعد عند الحاجة على مواجهة الحاجات الجديدة الناشئة عن الممارسة والمدارك الجديدة التي تسيطر في المجتمع . فهي تتمم القانون أو تكسبه ليونة إذ تتظاهر بتفسيره ، متخفية بقدر المستطاع وراء نية المشرع وغرضه ثم تنفذ أغراضها التجديدية بجرأة عند ما يحتك القانون المتلاني بالشعور العام مباشرة . ولا يستطيع القانون إلا أن يؤيد تلك الرواسب القضائية بضمها الى حظيرته .

فهناك إذن وحدة في الأصل ونوع من التآلف الطبيعي بين التطبيق والعادة والتشريع والقانون وتلك هي الوسائل المتنوعة التي يتجلى فيها الضمير الاجتماعي ، وهي لا تتميز إلا

بطرق انشائها . فالأولى من وضع مجموعة الأعضاء التي حافظت على كفاءتها التامة في أداء جميع نواحي نشاط المجموع . والآخر من وضع الأعضاء المتخصصين .

* * *

وهكذا فاننا نشاهد حركة تقدم داخلي للقانون . ففي البدء كان لا يتألف إلاّ من حركة القوات الخارجية ضد بعضها فقد كانت هذه القوات — في تنافسها المستمر المريع — تلتقي بعضها وجهاً لوجه وتتصارع وبذلك تحدد بعضها بعضاً وتعترف ببعضها ما دامت لا تستطيع القضاء عليها .

ولكن تلك القوات التي توازنت هكذا وألفت مقاييس ثابتة ، لا تلبث أن تستجمع قواها بفعل المناوشات المحيطة التي تقع في ظروف خاصّة تحد من المنافسة بفضل تقسيم العمل ، وتصبح مع الوقت متضامنة وتعترف لبعضها بمصالح متشابهة وتمنح شخصيتها في وحدة عضوية تنظم نشاطها وتديره قواعد داخلية . مثل هذه الظاهرة تتجلى في المجموعات البشرية التي تبدأ بأن تكون منسجمة كثيفة ثم تتفرق وإذ ذاك تضطر بواسطة مجموعة من الاجراءات إلى تحديد أتفاق الحركات الفردية ثم انسجامها .

وفي النهاية ينتهي الأمر بتلك القاعدة — الخارجية بالنظر إلى القانون الآلي والداخلية بالنظر إلى القانون العضوي — إلى التغلغل في أعماق الضمائر الفردية التي تتوق الى التحسن والكمال وتقبل بأنفة وشمم ان تحافظ على القانون الأخلاقي والكمالي محافظة تامة . ليست العدالة فكرة أولية بل هي نهاية تطور وهي تهذيب القوات المتوحشة تهذيباً مضطرداً .

فالقوات التي تتوازن ، والمصلحة المشتركة التي تربطها ، والعقل الذي يديرها ، والمثل الأعلى الذي يسيطر عليها ، تلك هي العناصر التي يتألف منها الحق ولن يكون هذا الحق كاملاً إذا جمعتها كلها . ومع ذلك فالمثل الأعلى الزائل يترك وراءه نوعاً من الحق الخشن في وسط جو رطب صقيع . والعقل المحجوب ينزع عن الحق دقته وليونته ولكنه لا ينزع عنه قوته وصولته ، وزوال كل مصلحة مشتركة يخلف قوات متوازنة تقف وجهاً لوجه فتصلح من شئون بعضها وتستغل . وفيما عدا ذلك كله تتحكم القوة الغاشمة الهوائية .

لكل بحسب قواه ، تلك هي صيحة الحرب التي تصدر عن الحق الخارجي ، ولكل

بحسب أعماله ، تلك هي كلمة النظام التي ينادي بها الحق العضوي ، ولكل بحسب حاجاته ، ذلك هو المثل الأعلى للحق الذي يشمد وحيه من الادراك العقلي للرجل . إن التشريع الواقعي ، وإن لم يقتصر على التسليم باحدى هذه المدارك فانه لا يقصي أي واحد منها ويفسح لكل واحد منها مجالاً : فأقوى هذه المدارك وأصلحها وأفضلها يمكنه أن يطمع في مساعدته وتعضيده . ولكن عندما يزداد المجتمع مساحة وكثافة واندماجاً ، فانه يزداد سيطرة على الأفراد وهكذا تتلاشى قوة الرجال المنعزلين أو الجماعات الجزئية ، أمام قوة الحق الاجتماعية التي تحمي حرية الجميع وتحافظ عليها متساوية . إن تطور الحق في نظام اجتماعي راشد يرمي الى هذه النتيجة . وإذا نحن لاحظنا أن مثل هذا الأمر بعيد الحدوث في العلاقات الدولية فذلك لأن دول جميع القارات لم تدخل في شكل نظام محدود ، ولا يكفي حضها على الاتحاد والاتفاق لاهدافها الى هذا السبيل القويم . فلابدّ طبعاً أيضاً أن تدرك قيمة روابط التضامن التي تربطها . إن التاريخ عبارة عن نظام اندماج يحشد في دائرته ، وبحركة واسعة النطاق ، أكبر عدد ممكن من الأفراد . فالحاجة الملحة تدفع الدائرة الاجتماعية ، أيّا كانت ، إلى التوسع حتماً وجمعية الأمم تعتبر شيئاً أسمى من الأمل .

ولكن لا فائدة في تعجيل هذا التطور في غير أوانه . فتلك مهمة دقيقة للغاية تتطلب من رجال الحكومة ادراكاً دقيقاً لأساليب السياسة أكثر من قيادة الشعوب نحو هذا المثل الأعلى بدون تعريض توازن القوات إذا لو اختلّ هذا التوازن فانه قد يؤدي الى كارثة يحسن حتماً تلافي وقوعها . إن في المطالبة بالسلام قبل كل شيء دعوة الى الحرب في أغلب الأحيان . فأيدي دعاة السلم كثيراً ما تكون مخضبة بالدم أكثر من قبضة المحاربين .

في القانون يمتزج التضامن الاجتماعي والقوات الفردية بكميات مختلفة . ولكي يترك للأول مكان يزداد اتساعاً مع مضي الزمن فانه يجدر بنا ألاّ نسند مهمة حل القوات وجمعها إلاّ إلى أيدٍ حريصة تعرف كيف تدرأ عنا النتائج الفتاكة .